رواية من إيران

أحمد حيدري

حمار الغجر الأحمق

مكتبة نوميديا

الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»

أحمد حيدري

حمار الغجر الأحمق

أحمد حيدري
حمار الغجر الأحمق
ردمك: 978-9931-677-06-2
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com
/dzreads @dz_reads dzreads.com

جميع الحقوق محفوظة ©

«لولا الحمار لما تكاثرتم»

من كتاب ملخص الأعمار لحياة الحمار

اتصل بي بعد غياب.

- ألو.

- أهلاً كيف حالك؟

عرفته منذ أول حرف، لم تفارقه نبرة المدراء رغم إيمانه العميق بتواضعه، قال حين استلم منصبه: هذا المنصب لا يساوي عندي عفطة عنز.

قلت له:

- شكرا لك كيف هي أمورك؟

- جيدة، لدي خبر لك، مات علاء.

علاء هذا الفحل الكردي مات!

لو بدأ بموضوع آخر لأكملت دورتي في متابعة القنوات وهي صامتة، لكن مع علاء اختلف الأمر، ومن ينقل لي الخبر؟! أغلقتُ التلفاز ووقفتُ أسمع جيدا ما كان يقوله.

ألد أعدائه هكذا كان يظنه علاء، وهكذا فعل معه، ففي آخر لقاء جمعَ الإثنين طُرد علاء من العمل لولا تدخل الخيّريين. صمتُّ لأستوعب موته وغيابه الأكيد هذه المرة.

أكمل حديثه:

- اليوم ستقام مراسم عزائه كما هي العادة في العمل.

ذكْر العمل أعادني إلى الشباك الكبير المطل على الحديقة من الطابق الثامن، وأعادني إلى أول كرسي جلست عليه، وأول لقاء جمعني به، لم يكن لقاءً واحد بل هو ثلاث لقاءات اجتمعت في آنٍ واحد.

- أردت إخبارك بذلك.

- شكراً.

وأغلق السماعة بينما كنتُ ما أزال أسترجع ضخامة علاء، وضخامة جمله، وصغر فرحه. لقد حصل على الجنسية مؤخرا، الجنسية التي ضحى من أجلها بكل شئ حتى بلغته. كان قد قال لي: «حين كنا في العراق، تركتُ لغتي الكردية ولم أعد لها، لأكون عراقيا. وهنا تنازلتُ عن العربية لأكون إيرانياً.»

مضت أعوامٍ منذ دخولي للعمل إلى جانب علاء، دخلت بعد وساطات تشعر بعدها كيف تُدار البلاد، وتعرف بالتحديد أين أنت من كل ما يُدار حولك. مَن كنتَ تمرّ من أمامه غير معتني به ولا توليه ذرة اهتمام، بات الآن الأمر بيده، هو من سيقرر هل ستجلس على أحد الكراسي الصغيرة أم لا؟ أعددتُ نفسي للعمل الجديد بنزع شخصية وارتداء أخرى جديدة وإن كانت ليست بعيدة عما نحن عليه، سوف أكثر من ذكر الله ولعنة الشيطان والشيطان الأعظم ورؤوس بصل الإستكبار وتابعيهم، المشكلة هي مع تابعيهم ففي كل عام يتغيرون أو يتناقصون أو يكثرون. وعليكَ تغيير استراتجيتك في الظهور.

حين حُدد مكاني في العمل الجديد دخلت إلى الغرفة التي احتوت على ست طاولات وعشر كراسي، اخترت كرسيا لا تتقدمه طاولة وجلست منكمشا أراقب الكل كتلميذ مستعد

لتعلم كل ما يقال، كل من دخل وخرج لم يثر فيّ أيّ إحساس إلا هذا الفحل، طويل القامة، ضخامة رأسه محيرة خاصة أنه دائري، بدين لكن طوله يوحي لك بالضخامة أكثر.

دخل معربداً قاذفا الأوراق على طاولته، عرفتُ أنها طاولته من تجنب الداخلين والخارجين من الجلوس عليها، كان يشتم بادءاً باللغة الفارسية ثم أكملها بالعربية.

لمحني، تغير وجهه إلى وجه قط أليف ومدّ لي يداً خشنة وابتسم لاوياً رقبته إلى اليسار كأنه يأخذ صورة لي، سلّم بكل أدب وبلغة هامسة. عليّ التعود على مناخه المتغير.

اقترب الظهر وأنا أراقب، اليوم الأول هو يوم المراقبة، وقد سعدت حين نُسيتُ في مكاني، مع تناهي صوت أذان الظهر شمّر الجميع عن سواعدهم للوضوء بينما كنت جالساً أراقب.

دخل علاء يرشح وجهه ويديه ماءً، فرش سجادته ونظر إلى الصورة المعلقة على يميني وقال:

- هذه السجادة له رحمه الله، أحضرها من مكة، كل مَن هنا هم تلامذته، لو كان على قيد الحياة !!!

ثم انهمك في الصلاة، كنت أشعر بالرجفة التي تصيبه

وهو يسجد.

كنت أستمتع بلحظات صلاته، انفتح الباب فجأة وظهرت امرأة ترتدي عباءة يتقدمها عطرها الصارخ، نظرت في الغرفة وارتدت راجعة، أنهى علاء صلاته مع إغلاق الباب:

- ها أم العيورة وين.

أنا متأكد أنها سمعته لكنها لم تر تحرك إصبع يده الأوسط وهو يتحرك كسمكة أخرجت للتو من النهر. صدمتني حركته.

خرجت من الغرفة لأدخن فاليوم الأول أيضا لا يمكن خرق حظر التدخين، في طهران هناك عداوة قائمة مع التدخين في الأماكن العامة، ولا يمكن الحديث عن غرف المدخنين في المطارات، تدخلها مرة لكي تنتهي علاقتك بها.

أما في الإدارات فالتدخين له حكايات فما أن تشم رائحة الدخان حتى يطل عليك معترض أو معترضة آتين من طوابق أخرى ومع مرور الوقت يقتربون منك طالبين سيجارة كانوا قد اعترضوا عليها وعليك، ولديهم شرطان للتدخين، أولا التدخين في الخفاء، ثانيا أن تخرج السيجارة من جيبك.

وقفتُ أمام المصعد وأخرجت سيجارتي وبينما أنا مطرق

الرأس اقتربت مني خطوات ثقيلة، كان علاء قد أخرج سيجارته وأشعلتها له، بدأ قائلا:

- ماذا نفعل؟ التدخين ممنوع في الغرف، يبدو أنك حشاش محترم.

تابعته وأنا أسرع في حرق سيجاتي، كل من يمر ينظر إلينا وكأننا نرتكب جريمة.

- لا عليك، كلهم أولاد قحبة.

يبدو أن الرجل لا يسيطر على لسانه، لم تنقضِ إلا ساعات قليلة أوصل ليّ فيها ما لا أتوقعه.

مرّ من أمامنا رجل قصير مشاكس يحرك حاجباه لعلاء فبادره علاء:

- ها عربي مي خواهي[1]؟

أطلق الرجل القصير ضحكة عالية ونزل السلم، كنا نقف أمام المصعد وهو في حركة دائمة نزولاً وصعوداً.

- كنت أكتب القصة، ولكن أولاد الكلب منعوها، كل من هنا حمار إبن حمار.

---

1 ها هل تريد عربيا؟

فيما بعد سأكتشفُ أنّ هناك رسامين وروائيين وصحفيين ودهاة سياسيين كلهم يتشابهون مع علاء، وحين اطلعتُ على ما عندهم، لا يتجاوز الحلم المخزن في إسعافات الذاكرة.

فجأة قذف سيجارته ووقف معتدلاً، انحنى وهو يلقي التحية على رجل عجوز ارتدى بذلة رمادية داكنة وقميصا أبيض، مدّ الرجل العجوز يده مسلما على علاء وأبقى يده ونظر إليّ، قال علاء معرفاً إياي:

- ها هل تريد عربيا؟

- أقاي حاسمي.

متى حفظ اسم عائلتي، حتى أني لم أذكره له.

تركنا الرجل العجوز وهو يمعن النظر فيّ، التفت علاء وقال:

- ألم تعرفه؟

- لا.

- إنه المدير العام، لا بل هو المدير الأعظم.

- ممتاز.

ممتاز هو اللقاء الأول مع المدير العام، أخذ فكرة ممتازة عني، هكذا تُبنى الأفكار والأرضيات منذ اللقاء الأول وهكذا سوف تلتصق بي ردة فعل أولي، كلما ذُكرتُ أمام المدير العام في الأعوام القادمة سوف يبقي يده معلقة في يد أخرى متناسياً أني أمد يدي نحوه.

عدنا إلى الغرفة وعدت إلى متابعة اليوم الأول.

دخلت فتاة ترتدي الشادر، بياض بشرتها غير طبيعي، كانت بيضاءً أكثر من اللازم، وأنفها طويل أكثر من اللازم وعيناها تتحركان بسرعة.

لم أسمع صوتها حين ألقت تحيتها أو هكذا خيل إليّ، دنت من عادلي الجالس خلف الطاولة منهمكاً في الكتابة، كان يلصق وجهه بالورقة وهو يكتب، أقصد ملصقا وجهه بصورة حقيقية، لاحظت أنه أقل الحضور حضوراً، إقتربت منه وأخذت توشوش له، كتب عادلي ملاحظته على ورقة وقال لها:

- چشم... چشم .. چشم[2]..

حين تقال هذه الكلمة من شخص كبير في السن تشعر معه

2 حاضر، على عيني.

بوجوب الأمر وأنّ هناك سلطات أكبر تأمر بالتنفيذ السريع، فتأتي هذه الكلمة ذات فعالية رهيبة، خرجت المرأة من الغرفة، بادر علاء قائلا:

- يا أبا علي العادلي شحم، والله شحم، أنت لك الشحم وأنا لي الذباب.

كان إصبعه يشير إليّ وكأني غير موجود في الغرفة، وكذلك كان عادلي غير موجود في الغرفة لأنه لم يرفع رأسه ولم يرد.

- حاضر، على عيني.

بعد أن أنهى عادلي الكتابة رفع رأسه، رأيت وجهه لأول مرة، كانت عينه اليمنى لونها عسلي بينما عينه اليسرى زرقاء باهتة.

«العناقيد تقطر ملائكة»

مجنون في صد دستكاه

- ما رأيك بصاحبة الشعر الأسود والردف.....

أجبته بكل برودة:

- لا، إذا كنت تبحث عن الجمال فهو في أطولهن قامة، الشعر يسوّط الكثبان، شعرها وحده يقدم لك رقصة حريرية، ما ينتهي إلى الصدر...

كنت أجيبه وأنا أنظر إلى أصابعي وكأنّ ما أقوله لا يعنيني أو أنها ليست أمامي، بينما هناك ثلاث راقصات تهتز أجسادهن بالفتنة والإغراء، يرتدين أثواب طويلة وهناك فتحات تصل

للركبة، وقد تجمعت لدي منذ فترة مواصفات الجمال من كثرة ما كرره كبار السن أمامي عن أيهن أجمل.

لم نكن إلا أبناء وإلى جانبهم آباؤهم يشاركون النظر إلى الأجساد المهتزة منصتين إلى غناء.

وبينما كنت منهمكا مع نجم في حوار عن الأجساد المعروضة أمامنا كان هناك رقص أبوي للحديث الدائر بيننا، استمعا لكل كلمة قلناها وها هما يسمعاننا حديثهما، قال أبو نجم لأبي:

- وكأنّ ابنك بدأ يتحرك!

- نعم يا أبا، نجم بدأ الشباب بالتحرك وعلينا نحن أيضا بالتحرك من أجلهم.

- هذا أفضل ما تفعله، الستر.

طرق الباب فطلب أبي مني أن أطفأ التلفاز وشريط الفيديو، نهضت وأطفأت جهاز الفيديو ورميت عليه قطعة القماش المربعة الشطرنجية وفتحت الباب، كانت قطعة القماش لافتة وتصرخ على أنها تخفي تحتها شيئا محرما، تركت التلفاز بصفحة سوداء.

الداخلون لم يكونوا غرباء، ففي أحدى المرات طلبوا نفس الراقصات وقد أعطوا للراقصات أسماءً تليق بهن، ولكني كالعادة أنظر لأبي وهو يتحدث وعن طريق حديثه أعرف ما يجب علي فعله، فأحيانا تنقلب الأمور ورأسي هو المكان الوحيد لها. فعن طريقة حديثه أعرف هل أشغل شريط الفيديو نفسه أو أغيّره للمصارعة الحرة أم أنقل للبثّ الأرضي. طريقة حديثه هي من تحدد لي ما سيبثّ.

حين دخلت كان يبث التلفاز مقطع من (غلام كويتي بور) لهذا المنشد الديني أو الرادود صوت حربي ومأساوي وملحمي، ينيم الجمهور ثم يطلقهم من مكامنهم لينطلقوا في حملة ضد أنفسهم متمادين في الإنطلاق إلى الأمام وكسر صمت صحرائهم وجداولهم والحزن القابع تحت الصخور الندية والجافة. خاصة حين يردد في مسجد جامع «عمه بابايم كجاست»، صرخة طفلة تسأل عمتها عن أبيها. إنها أنشودة حرب طبولها الصدور وهي تقرع.

كنت أشعر بلسعات نظرات نجم عليّ وما أن تلاقت أعيننا حتى أشار لي لنخرج من الديوانية، كان ماكنة أسئلة جارفة، يسأل عن كل ما يقع نظره عليه غير تارك لا بشر ولا حيوان ولا حشرة ولا جماد.

يلف ويدور لكي يسأل سؤال الانفجار حين خرجنا قال لي:
- أريد الشريط.

- حسنا خذه ولكن هل لديكم فيديو؟

- لا.

- وكيف تريد مشاهدته؟

- سوف أحصل على جهاز الفيديو.

- حسنا كما تريد سوف أحضره لك.

- لا ليس الآن، خبئه وحين نهم بالرحيل اعطني إياه.

وعدنا إلى الديوانية بعد أن نادى عليّ أبي لأسكب الشاي للقادمين الجدد، نظرة أبي كانت موافقة لأضع شريط الفيديو للقادمين، رفعت الستار الشطرنجي عنه لتكمل الراقصات جولتهن أمامنا. وانقطع صوت كويتي بور.

انقضى شهر ليأتي نجم مرة أخرى إلي، أول سؤال بادرته به:

- هل شاهدت شريط الفيديو؟

- لا، لم أحصل على جهاز فيديو ولكني سوف أحصل

عليه، المهم هو الشريط.

- ولكن أبي بدأ يسأل عن الشريط ولا يمكنني الهروب أكثر من أسئلته.

نظر حوله، انتظرت أن يبدأ أسئلته التي تتبعثر في كل جانب قال وهو يوزع نظراته حولي:
- بسرعة ارتدي ثيابك.

- حسنا.

الوقت عصرا، لم أحب أن ألعب دوره في مشاكسة سؤالية، سيجبرني على لعب دوره وأنا الآن لست بحالة تمكنني من مسايرته.

خرجنا من المنزل للشارع الترابي وسرنا فيه حتى وصلنا إلى الشارع المرصوف، وركبنا باصا، كنت أشم رائحة احتراق الجزء الأيمن من دماغه لأني لم أسئله إلى أين نتجه، سوف يقول لي قبل أن نصل حيث يريد الذهاب لن يتحمل السير أبعد، هكذا تقول أمه عنه. أم نجم ذات الحجج القاطعة في حق أبنائها.

- هادي سوف ننزل هنا أريد أخذك إلى الحصان ثامر

وسوف يأخذنا هو إلى مكان ستحبه.

هكذا هو إما يدخلك في انتظار حارق أو ينفجر قائلا كل شيء، اتضحت الآن البداية والنهاية. ها نحن نتجه إلى الحصان.

نزلنا من الباص في إسلام آباد، أو الغميج كما يحب أن يسميها أبناءها وكل من حولها رغم كل اللافتات وإيصالات الكهرباء والماء التي تركز على إسلام آباد ولكن يبقى الغميج غميجا. كانت لدي عقدة الميادين كما عقدة الشوارع، الميادين كلها متشابه بالشخصيات في كل المدن، أقدر حافظ وأعشق فردوسي ولا يخطر سعدي دون أن أعيش في بساتينه والخيام جنون أتوق إليه، ولكن لمَ تنحصر الميادين بهم فقط، أينما ذهبت وإلى أي مدينة العلامة الحصرية لهم فقط. تفاقم الأمر مما جعل بعض الفنانيين يخلقون أعمالا لسكان مدينتهم، أو استحضار شخصيات من تاريخهم ورميها في الميادين، عبث التماثيل، يرمي الفنانون تماثيلهم ويجمعها عمال البلدية صباحا، زرت في يومٍ أحد الزبالين كانت لديه من التماثيل ما يصيب الإنسان بالجنون، كان أبرز التماثيل المتعلقة بالوهم، كان مثقفا ويتحدث عن تاريخ كل تمثال وإلى أي ميدنة ينتمي، سافر إلى عدة مدن لجمع التماثيل

بعد أن سمع بها، اضطر أن يطلّق زوجته لكي يخصص كل وقته للتماثيل وجمعها. يقول إن ساعة ذروة رمي التماثيل الساعة الثلاثة فجرا، وحصدها الساعة الخامسة. قبل أن يدخلني إلى غرفة التماثيل التي جمعها، توقف في الباب، أشعل بخوراً، ثم دعاني للدخول.

- هذه من سمنان، وهذه من كردستان، وهذه من آذربايجان، وهذه...

نظر إليّ كأني يجب أن أعرفها حق المعرفة.

يجري اعادة صناعة كل شئ في البلاد، خاصة الشوارع، لا أعلم لمَ اعطاء الشوارع هذه الأهمية من اعادة الصناعة الإسمية.

الغميج حي شعبي، ما أن تدخله حتى تلاقيك منازل على يمينك وشمالك، وأزقة متداخلة، تتعمق في الدخول فتتحول المنازل إلى يمينك فقط بينما اليسار بحيرة كبيرة ملوثة بمياه المجاري، يحيطها القصب والطيور والضفادع وقفزات للأسماك الصغيرة، وكلما تقدمت تدخل وسط النخيل ثم يأتي بعدها الطريق الترابي ثم النهر ثم الجزر التي تخرج صيفا وتختفي شتاء فقمرها موسمي.

وتقع الغميج في قائمة الأماكن الخطرة ولكن خطورتها من المستوى الثالث، وإذا دخلت مرة فلن تخافها بل سوف تحبها وتعتاد عليها. هناك مناطق يصفها سكان المناطق الراقية والضواحي بأنها خطرة جدا وهي خليات للإجرام، الصحافة تركز على الجرائم فيها والسرقة والقتل، حتى حادث السير يُصاغ: وقع حادث سير في منطقة الغميج وتوفي على إثره ركاب السيارة، يُذكر أنّ الغميج قد وقعت فيه الكثير من عمليات القتل في العام الماضي.

ونحن نمشي كان نجم يوزع التحيات، أهلا قاسم (كثيف) وتلفظ كسيف بمعنى الوسخ جدا جدا، أهلا قاسم (خوش تيب) وهنا العكس تماما، وكلا القاسمين يستحقان ما حصلا عليه.

فمن النظرة الأولى سوف يُكشف لك الإختلاف بين القاسمين، فقاسم كسيف ضخم ومرعب ويملك وجه مجرم وشعر تركه يلتف حول أذنيه، ويده حاضرة للصفع، ونظرة عابثة. بينما قاسم خوش تيب رقيق، جميل المنظر ومشرق الوجه وأبيض الأسنان وشعره مدهون وعطره يركض أمامه.

قاسم كثيف طيب القلب يبكي بسرعة حين يأتيه الليل

ويسكر وهو بعكس قاسم خوش تيب فهو في السكر شرس وعدواني.

وكلا القاسمين يتجهان للعمل، الكثيف إلى البناء فهو لا يعرف أي توقيت للعمل، العمل هو عمل، والخوش تيب إلى الصيدلية، أمام باب الصيدلية يصطاد النساء هناك ليعيش يومه في أحضان إحداهن وعادة تكون كبيرة السن، فلسفته هي النهار للكبيرات والليل للبط الصغير، وهو دائم البحث عن أماكن جديدة لا تخطر على عقل. آخر ما توصل إليه هو بوابة الصيدليات.

هناك عرفني نجم على ثامر الحصان، كنت أعرفه من بعيد، انحرف يمينا بي قبل الوصول إلى بيتهم في زقاق ودخلنا مباشرة في بيت صغير، عبرنا الباب المفتوح فكدت أقع لأن بعد عتبة الباب تنزل الأرض فيك، في الساحة وضع سريرا حديديا عليه شباك حديدي أيضا، منظره يوجع الظهر، أجلسني عليه وقال:

- سوف أعرفك على ثامر البطل.

دخل ثامر مبالغا في تحيتنا، وجهه طويل وأحدب الظهر، دائم النظر للأرض ويتكلم بكل برودة وعلى مهل كأنه يلوك الكلمة، مضيفا لها بعداً حَكَيما.

انزعجت من طريقة كلامه خاصة أنه بدأ حديثه عن بطولاته وكيف ضرب وفتك ونجم يحرضه على ذكر الحكاية الفلانية، وإذا نسي كلمة يذكره بها، مادام يعرف القصة وتفاصيلها لِمَ يحب سماعها مرة ثانية؟!.

قفز نجم من جانبي على الأرض ووقف أمام ثامر وقال له:

- حدثنا عن الجني الذي صادفته منتصف الليل وما حدث لك معه.

وهنا قال ثامر وهو يلوك الكلمات:

- انتظرا لحظة.

دخل إلى البيت وهو ينادي أخته، ثم خرج وبيده طاسة نحاسية فيها حب عباد الشمس. رمى حبة في فمه وبصق قشرتها.

- كنت عائدا من الشط بعد أن شربنا، كنت سكرانا، وإذا بي أرى سوادا يتحرك مسرعا من أمامي، أسرعت خلفه، انفصل جزء من السواد المتحرك متجها إليّ بينما السواد الأعظم بقي يسير مبتعدا عني، قلت فلأمت بشرف والقبور القديمة تحت رجلي، ثم خفت فركضت، ولكني التفت خلفي، السواد كان

يركض نحوي أيضا، فجأة خفّ ركضي، هذا السواد الراكض بضٌ، فسقطت، وصل السواد إليّ، صرخت، فخرج صوت:

- سوف أسحرك وأدخل فيك مرضا.

- أنا من سوف يدخل فيك مصائب الله، يا ساحرة يا ناس يا عالم.

وصرخت بأعلى صوتي فوضعت المرأة يدها على فمي وأسكتتني، عضضت يدها، فلمع شئ أمام عيني وأسكتني لكني عدت للصراخ أنا أمام جني وليس بشر صرخت: يا ناس سوف أموت الحقوني.

ارتمت علي مدت يدها بين ثديها وأنا أنظر مرعوب وأخرجت نقودا أخذتها فقامت عني ولحقت بصاحباتها.

سأله نجم:

- يا شيطان تركتها؟

- كنت خائفا.

- ألم تقطف؟

- لا، لا، أخذت المال وعدت للبيت ونمت.

سألته:

- ماذا كان يفعلن؟

- كن في المقبرة؟

- ولكن ليس هناك مقبرة في الغميج؟

- ها هناك مقبرة قديمة جدا خلف الهور وفي أعلى التل، مازال الناس يدفنون أطفالهم الرضع هنا أو من يقتلونهن.

- وماذا يفعلن في المقبرة؟

- في ذلك النهار دفن صاحب طفله الذي انتظره أعواما، نجم أنت تعرفه صاحب أبو ستة أصابع؟

- نعم صاحب الحضري.

قلت له:

- وهل أخذن الطفل؟

- طبعا أخذن الطفل لأن أهله في الصباح لم يجدوه في قبره، دعونا من هذا، كم تحمل معك؟

- أنا؟!

- نعم أنت.

قال نجم:

- دخلنا في المهم.

- إذا أحببتما الذهاب علي التحرك الآن وإلا فسيكون المكان مظلما وخطيرا.

- ولكن ليس معي ما يكفي من المال.

كان لدي المال وعرفت أين سيذهب بنا، كان الأمر واضحا في عيني نجم الشبقيتين.

- حسنا إذا أحببتما نذهب غدا أو أدفع أنا وتحضران المال لي غدا.

أجابه نجم:

- نذهب ويحضرها هادي لك غدا.

هكذا أقحمت وتركت للغد.

كنت أعلم ما نويا على فعله ولكن لا أعلم إلى أين نتجه والآن علي دخول لعبة الانتظار مع اثنين. وجاء الغد.

- علينا أن نركب على مراحل، هكذا أفضل فلن يشك بنا أحد، وهو أفضل من أخذ سيارة مباشرة إلى المكان، من هذه اللحظة إذا كان لديكم مال خبآه جيدا.

تحركت يد نجم نحو جيبه وأخرج ماله وحاول وضعه في شورته فقبض ثامر على يده.

- ها كيف تسير الأمور معك؟ لدي مكان أفضل دعني أخبئه لك.

حين جاءني نجم أصر أن أرتدي دشداشة بيضاء وأفضل نعل لدي وحدده، النعل الأسود، وهكذا عدتُ للبيت وفعلت ما أراده.

عليك السير بحذر وسط الشارع الترابي، كأنك تسير على أحجار رصفت فوق نهر، في الشارع محلات حدادة وتصليح سيارات وبيع الزجاج وكهربائيون، مشكلين مغزوفة العصر. إنها كوت عبدالله وهي تستعد لليل.

حين ترجلنا من السيارة في مركز المدينة نادري أكملنا السير من مفترق عبادان متجهين إلى المفترق الثاني، مرت بالقرب منا سيارة وصرخ سائقها فينا.

ركض نجم خلفه يلعن وثامر يتبعه أوقفه وعاد به.

- اتركني لقد شتمنا هذا الحقير....

ولم يكف نجم حتى حين ركبنا السيارة المتجهة إلى... لم أعرف بعد أين تتجه بنا، قال السائق:

- جي شده اقا [3]؟

- هچي دوستم يكم نارحت شده[4].

قال نجم:

- اين پدر سك به ما فش داد[5].

- كي[6]؟

- اين مادر قحبه، به ما گفت قالب پنير[7].

- يا حبيبي لا تعصب، هؤلاء ناس تعبانه.

---

3 ماذا حدث يا سيد؟

4 لا شئ صديقي منزعج قليلا.

5 لا لقد شتمونا أولاد الكلب.

6 من؟

7 أولاد القحبة قالوا لنا قالب جبن.

- هل تعرف عربي.

- نعم أفضل منك.

قال ثامر:

- أنت منا.

- لا أنا لست عربي ولكن كبرنا مع بعض، دعونا من هذا الامر أين تودون الذهاب.

فقال له ثامر:

- إلى قرب الصفاة.

كنت أجلس إلى جانب السائق وكان ثامر ونجم يجلسان في الخلف، لقد بدل نجم كل المعادلة، فثامر متصدرنا أو هو تكفل بالأمر لكن نجم لخبط سير الأمور.

نظر السائق إلى ثامر من المرآة الأمامية وقال له وهو يبتسم:

- هل تودون أن آخذكم مباشرة إلى المكان؟ الأمر راجع لكم.

اصفر وجه ثامر الطويل فزاد طوله ونجم نسي شتائمه.

قال السائق:

- للشباب حقهم في الحياة، أجرتكم دو هزار تومان[8].

لم يرد لا ثامر ولا نجم وأكمل السائق طريقه.

بعد عشر دقائق من السير في الطرق الملتوية تكلم ثامر:

- انزلنا هنا.

لكن السائق لم يوقف السيارة.

- انزلنا هنا.

- بقي القليل سوف تتسخ ثيابكم بالتراب وأمامكم طريق طويل وخلفكم طريق أطول.

كان يجر جملته الأخيرة على إمتداد الطريق الذي قطعناه.

سلمه ثامر الألفين تومان وكنت أول النازلين من السيارة، كانت سيارة البيكان، البيكان الذي أدخل لإيران ثقافة السفر لمسافات بعيدة، هي السيارة التي كشفت شمال إيران وجعلته متاحا لمن يمتلك البيكان. يقال إنّ هذه الماركة

8 ألفا تومان.

مازالت هي المفضلة عند «مستر بين» للقيادة وهو معتز بصناعتها البريطانية.

ومثلما قال السائق كانت الأرض متربة، امتد الشارع أمامنا، شارع طويل لكن نهايته واضحة، صادفنا رجل ارتدى دشداشة بيضاء، أو كانت بيضاءً، كان يصرخ بأعلى صوته:

- العناقيد تقطر ملائكة، ملائكة يا ناس ملائكة.

اقترب مني ثامر وقال لي مدنيا ذقنه الطويل:

- شوف سوف نقول لهم إنك كويتي وأنت بزيارة الآن.

- ماذا؟ كويتي؟ لكني.....

- نعم اسمع الكلام وكل عنبا.

- لكني لم أر الكويت ولا أعرف.....

- تعرف تقول اللحين؟

- الحين !

- ممتاز «الحين» وتسير الأمور على أفضل ما يكون، لا تنظر لا إلى يمينك ولا إلى شمالك لا تحرك رأسك، انظر للأمام.

ونفذت ما طلبه مني، وارتبكت في مشيتي وباتت الدشداشة عائقا كربها، لم أحرك رأسي لكن عيني كانتا تجولان على طول الشارع.

اصطفت البيوت على طول الشارع، بيوت قديمة متهالكة جلست النسوة أمام الأبواب، وكلما مررنا من أمامهن تقول إحداهن لنا:

- تفضلوا.....

وتلحقها بنظرة مكهربة.

وأخرى تقول: ها الشباب يحبون العسل لو اللوز.

الجمل تتقاذفنا محملة بكل ما يحلم به، بيد أنّ هناك من النساء من وقف رجل إلى جانبهن، أشكالهم مخيفة غير آبهين بما يقال أو يجري.

لم يقف ثامر أمام النداءات وأكمل سيره، أسير كأسير في نفق مظلم وضيق.

على كلا الجانبين اصطفت البيوت المبنية من الآجر، وهناك أزقة تكشف بيوتا مبنية من الصفيح ذات أبواب مشرعة

أو ساقطة أو مسندة.

- ها هادي كيف الحال؟

نفس الشعور الذي اكتشفته مع الغسالة حين قالت لي أمي أن أخرج الثياب منها ومددت يدي داخلها وسط الماء فتكهربت، هذه التحية كان لها ذلك المفعول القوي، عرفت الصوت، هو لعبد الرضا، لم يقف، أكمل خروجه من الشارع وهو منتشي، كيف الآن لا أراقب من يراقبني.

هناك الكثير من الربع، يتفادون كما نتفادى، وحده عبد الرضا من أعلن عن وجوده بتحية، رغم أني عرفته خجولا.

اقتربنا من بيت كبير لم يكن أحد يقف أمامه والباب موارب، طرق ثامر الباب فخرجت عجوز وقالت لنا تفضلوا يا شباب.

كلمة الشباب هناك تقال لكل من يمر.

دخلنا البيت، جلسنا على سجادة قديمة متهرئة، المخدات خلفنا مصابة بفقر القطن أو الريش، مازال ثامر يقودنا حتى هذه اللحظة.

- صديقي كويتي وأحب أن يزوركم.

قاطعته:

- أنا أعمل في الكويت.

انفرجت شفتا العجوز وبانت أسنان ناصعة البياض مرحبة بحرارة، شفتان لذيذتان، نادت على شمام فدخل شاب مخيف ذو شارب أسود كثيف وشعر أجعد، يرتدي بيجاما سوداء فضفاضة وفانيلا صفراء، واضعا وزارا أحمر على رقبته، عيناه حمراوان.

قالت العجوز له وأسنانها تلمع:

- قم بواجب الضيافة.

ثم التفت إلينا أو إليّ وقالت: اسمحوا لي بدقائق، سوف آتي بسرعة، خرجت ممسكة بيد شمام ساحبة إياه معها.

بعد دقائق دخلت فتاتان تتراقصان، الصدر يهرول أمامهما، ترتديان فستانين طويلين ضيقان وأملسان كحجر الصوان، كأن القماش جلد فقمة للتو سلخ، تبرز كل أسرارهما، وضعتا الشيلة على رأسيهما ولكنها غطت النصف من الشعر، الفستانان يرقصان على الجسدين مع أقل حركة، جلست واحدة على يميني والثانية على يساري بعد أن ابتعد عني ثامر.

لا أعرف رائحة أي واحدة منهما جعلتني أزيح وجهي للأعلى، وكانت العجوز على الباب ترقب فلاحظت ذلك وقالت:

- ضيفنا لفاتن وليس لكما.

ابتعدتا عني سنتيمترات، التصق نجم بالفتاة على يساري ووضع يده على كتفها وكانت تنظر في عينيه وهو غارق في تفاصيل ما يمنحه الفستان.

بعد دقائق أخرى كنت فاقدا بالشعور بكل ما حولي، أشعر أن الجدران تبتعد عني وتعود تهرسني، دخلت العجوز وقالت لي تفضل.

نظرتُ لثامر، أشعر بصعوبة بالحركة وبدوار خفيف، بضيق نفس، أيها القائد، كان القائد ملتهيا بالفزاعة التي إلى جانبه ويريد التقدم أكثر، يده تقدمت حيث لا رجعة، لم لا نجد القائد حين نوشك على السقوط.

دنوت من العجوز، أمسكت هي بيدي وسارت بي إلى نهاية الممر، كان ممراً طويلا، لم أكن أتوقع كل هذا الطول، هناك باب خلفي في نهاية الممر، ولم تكن أي غرفة على طول الممر، قرب نهاية الممر هناك واحدة على الجانب الأيمن وأخرى على اليسار.

أمام الباب الخشبي استوقفتني العجوز ممسكة بيدي بشدة وقالت: هذا هدية مني.

ووضعت بيدي قطعة صغيرة سوداء لينة، ثم فتحت لي الباب وتركتني راجعة.

دخلت الغرفة، كانت رائحة البخور الهندي الذي أكرهه تعمّ الغرفة، يبدو أنهم نظفوها بسرعة، هناك سرير حديدي وضعت عليه ملاءة بيضاء ومخدة واحدة، أربع أعمدة ترتفع من السرير ملامسة السقف تمتد منها شبك ناموس خفيف ممزق.

كانت العينان تجلسان على الأرض، أظلمت الدنيا وغابت الرائحة ولا أرى أو أشتم إلا هاتين العينين، مخيفتان وساحرتان.

جلستْ على الأرض وخلفها مخدة كبيرة حمراء قالت لي:

- هنا بقربي.

دنوت منها ربتت على الفراش مثيرة التراب، وضعت أمامها آنية مملوءة بالفاكهة ووضعت موزة واحدة فقط.

- أنت لم تر الكويت في حياتك؟

سكت.

- نترس به هيج كس نمي گم[9].

أشعر بفقدان سيطرتي على جسدي وأنه سيدخل في نوبة ارتجاف، يا إلهي كيف يتبدل الإنسان مع اللغة إلى كائن آخر، حين قالت جملتها تحولت إلى مخلوق آخر.

- هل بإمكانك الحديث أم تحب أن.....

نهضت من مكانها، كانت ترتدي تي شرت أحمر وتنورة وردية طويلة، رفعت تنورتها ورأيت.... كان كل شئ أبيض شبحيا، أنزلت تنورتها بسرعة وجلست إلى جانبي ملتصقة بي.

- أنت بكر، سوف أعلمك قواعد مهمة هل أنت جاهز؟ هل ما أقوله صحيح هذه المرة الأولى لك؟

هززت رأسي في اتجاهات عدة.

- افتح يدك، ما هذا؟ ترياق (أفيون)؟

- لا أعلم سلمته لي، ماذا أفعل به؟

- وأخيرا نطقت، اعطني الترياق، لا تلمس هذا الشيء أبدا هل فهمت؟

---

9 لا تخف لن أقول لأحد.

- كيف عرفت؟

- نعرف منذ أول نظر، هل تعرف ذلك؟ بينما نحن نعرف من أين بلاد الداخل علينا ونوهمهم أنهم ما يحلمون.

- سوف أخرج.

- لا ابقى قليلا، أحتاج للبقاء هنا قليلا، لا عليك لن يهتم احد فقد سلمتك العجوز حسنة الترياق ومن الطبيعي أن تستمر مفعوله إلى فترة طويلة، هل تفهم ما أقول؟

كنت أهز رأسي ولا أعلم في أي اتجاه أهزه، كانت عظامي جافة وتحتاج إلى تزييت.

- أنت مسكين، من جاء بك؟ خوب شعر بخوانيم، شعر دوست داري؟ شاملو[10].

- شامبو؟؟!

- نه شاملو، ألم تسمع باسمه؟

كنت أشعر بغبائي، شعور مخجل أمام هاتين العينين، مع كل كلمة تكشف أوراقي بوقاحة لكن الجلوس بقربها جميل، حتى شعر الشامبو بجانبها جميل، فلتقرأ كل ما تشاء.

- حسنا اعتبره الدرس الأول لك، اسمع:

---

10 حسنا سنقرأ شعرا، هل تحب الشعر؟ شاملو.

در نیست
راه نیست
شب نیست
ماه نیست
نه روز و
نه آفتاب،
ما
بیرونِ زمان
ایستاده‌ایم
با دشنه‌ی تلخی
در گُرده‌هایمان[11].

---

11 قصيدة (ليلًا) الأغنية العاتمة، من ديوان (إبراهيم در آتش) إبراهيم في النار، أحمد شاملو.

في العدم

لا طريق

لا ليل

لا قمر

لا نهار

لا شمس

ونحن وقفنا خارج الزمن

- يا الله، دعنا نقرأها مرة ثانية.

- لا.

- ألم تعجبك؟ على العموم علينا قضاء بعض الوقت، ولكن ألم تعجبك هذه القصيدة للمرة الألف قرأتها، حارقة لكل ما تمسه.

- لماذا لا تقرئين لشاعر عربي؟

- من مثلا؟

أضيف دوار آخر لدوارت تعصف بي، أي شاعر، كنت أغفو إذا ما قرأ شيخ عجوز شعرا، هناك اسم سمعته ولكني لا أذكره.

- مثلا للشاعر الكبير شعلان الإعطيو، عنده الشعر الحقيقي.....

كنت أريد أن أكمل ما كنت أسمعه حين أقرب من أخذ الغفوة حين يكون من حولي يتناقشون حول كلمات لا أفهمها.

جلست على السرير بعد أن كانت تسير وهي تقرأ، قالت:

- اقرأ لي، هل تحفظ شعره؟

بخناجر مرّةً

في دوائرنا.

- لا ولكني سوف أحضر شعره لك، إنه شاعر عظيم.

- حسنا إذن ليس لدينا الآن غير الآتش[12].

- لماذا تقرئين لهم؟

- هذا من أصول العمل، ها هل تعرف أني أقرأ من أجل جماعتك العرب، هذه اللغة تثيرهم، أكثرهم يطالبوني منذ الدقيقة الاولى أن أتحدث معهم بلغة الآتش وعليّ ممارسة التمرين، لن تصدق كيف تتحول أعينهم فجأة وكأنّ الكلمات راقصات عارية ترقص أمامهم، تثيرهم تجننهم، ياه هذا الديوان جميل.

رفعت الكتاب الصغير، لمحت عنوان الكتاب، هذا الشئ الكريه والممقوت ذو الصفحات الحزينة، الكتاب يعني الحزن والتعب والإستقاظ صباحا ومواجهة أساتذة لا يحتملون ومتعبين. فتحت الكتاب مرة أخرى، لاحظتُ أنها وضعت علامات على الصفحة.

- حسنا نستطيع الذهاب الآن يا عاشو.

- اسمي هادي.

---

12 النار.

- حسنا هادي.....

قفزت من على السرير وركضت في الغرفة متجهة إلى الجدار، خفت من حركتها المفاجئة، رمت نفسها على الجدار واقفة على يديها وجاعلة رجليها إلى الاعلى، كنت واقفا حين سقطت تنورتها مغطية وجهها، فخذان أسمران لهما لمعة الشكولاتة حين يكثر من وضع الحليب عليها.

صوتها الآن بطعم آخر من خلف التنورة الساقطة على وجهها.

- سوف نخرج.

قبضت على يدي وفتحت الباب وخرجنا من الغرفة متجهين إلى الباب الذي كان في آخر المرر، خرجنا منه إلى حيث تمددت أمامنا بيوت صنعت من الحديد مررنا منها بسرعة، كانت الصور أو البيوت الحديدة مشرعة الابواب والصور غير واضحة المعالم، صور تولد في وبين الحديد بأشكال غريبة، وصلنا إلى الخيم بعد أن قطعنا البيوت الحديدية، مازالت تمسك بيدي، كنت قريبا من وجهها رائحة عرقها الأسمر مزقت صدري، ورائحة شعرها خلق الجنون تحتي، لا لكل قطعة منها رائحة.

مررنا من خيمة صغيرة كان ينام فيها رجل خرجت رجلاه من الخيمة ضاربة بها الشمس، قالت:

- سرتيب، كيف حالك؟

لم يرد، قالت وهي تركض:

- لقد ترك الدنيا وانضم لها في خيمتها.

فجأة دخلنا خيمة أكبر، كانت مزدحمة، وقفنا في وسطها، كانوا يعزفون الموسيقى، ربابة وعود وكمان، وقفت وسط الخيمة راقصة مع النغم، رفع المغني صوته، كان حزينا. كنت أنا في وسط الخيمة إلى جانبها وهي ترقص. كنت أنظر للوجوه وهي غير مكترثة بي. هناك من يبكي ومن يهز رأسه ومن يتابع الرقص.

قبضت على يدي وركضت بي خارجين من الخيام. نركض ونركض حتى وصلنا إلى خيمة بنية صغيرة في النهاية حيث أرض تشبه الصحراء.

قذفت نفسها في خيمة صغيرة، تمددت هي بسرعة على ظهرها، وكنت أجلس إلى جانبها، للتو لاحظت صدرها وهو يعلو وينخفض تاركا أثره في الأثير، ماذا يخبئ هذا الصدر بوتديه؟

- لن تعرف الليل إلا هنا، الليل لا يعرف إلا من الخيام، مع القليل من الآتش أمامك وبعض النجوم سوف تكتشف الليل على حقيقته. يجب أن تفهم لغتنا في الخيام.

مازالت رائحتها تشق صدري. ثم تحدثت بلغة لا أفهم منها إلا مفردات. لغة جميلة ساحرة وضبابية.

- هل تعبت من الركض؟ هل تود العودة؟

- لا.

- الآن سنقرأ مرة أخرى سوف تفهم معنى ما صعب بين الجدران.

مازال الكتاب في يدها، هي أقصر مني وأظن أننا في نفس العمر.

- استلقي إلى جانبي وأغمض عينيك وتخيل الليل وسوف أقرأ عليك.

فعلت ما قالت، كانت الكلمات الآن مرعبة، فيها صوت خفقان القلب وصوت الشاعر ومع نهاية كل جملة تكسر نجمة، تمدد الزمن أكثر من الجمل، كانت الكلمات تسير تركض بصوتها والسماء تخلق غروبها على مهل كأنها تتوافق مع الكلمات الصادرة.

- هل نعود؟

سألتني، كانت الشمس توشك على الغروب، نهضت ومشيت خلفها، مازلت لا أرى ما تحتويه الخيم الأخرى، كأنها تذكرت أمراً أعادتني إلى الخيمة، أشعلت نارا:

بر سر آتش تو سوختم ودود نكرد

آب بر آتش تو ريختم وسود نكرد

هذا مولانا، تعرفه؟ يتحدث عن نار القلب، المسكين عاد قلبه للنار، لا دخان لها، سكب الماء عليها فلم تنطفئ.

فجأة قالت تعال لأعرفك على أفضل مستمع للشعر.

ركضت وهي قابضة على يدي، لا شيئ الآن إلا نحن والتراب والسماء، ماذا تريد أن تفعل بي؟

حاولت التقدم عليها لكن تقدمها أجمل، شعرها يضرب وجهي، شعرها !! خرجت هذه المجنونة دون حجاب. متى وقع منها، هل رقصت دون حجابها؟

- شعرك، شعرك.

كنتُ أصيح بها وهي تحركه متباهية، كانت تركض متقدمة نظرت نحوي إبتسمت، ركضتُ أكثر، ضحكتُ أكثر، وجعتني رجلي أكثر.

- نحن حافيان، حافيان.

صحت بأعلى صوتي، لا أعلم لمَ كنت أصرخ؟ وكيف فقدنا نعلينا؟

ظهرت من العدم خيم أخرى أصغر من السابقات، خيم لا تتحمل أكثر من شخصين متلاصقين، خففت سرعتها وقالت لي:

- چزي نگو[13]، لنعبر بهدوئ.

سكتُّ ولم أقل كلمة، ثلاث خيم متباعدة، اثنان منها فيها حركة عنيفة والثالثة التي نحن بقربها صامتة.

جلستْ على الأرض ساحبة إياي بقوة، سقطت بجانبها، أمسكت هي رجليها وقالت:

- أفضل من يسمع الشعر ويفهمه ويحمله.

كنت أنظر لرجله قلت لها:

- لماذا رجليه حمراء؟

---

13 لا تنبس بكلمة.

- وضعت لها الحناء، جدتنا قالت لنا إنها تبرّد عليها وتجعله أجمل.

- ورأسه أيضا أحمر هل وضعتم الحناء على رأسه أيضا؟

- نعم أنا أول من فعل ذلك، خوشگل نه[14]؟

- بله خيلي[15].

- تنظر إليه وتحدثه وتضحك معه وتسأله عن أموره وهو صامت ينظر بطيبة.

قالت:

- هو أول من سمع الشعر مني، يحب العزلة ويفضل هذا المكان، في منتصف الليل يعود، وإذا لم أزره يأتي إليّ مساءً، يسمع الشعر ويعود لمكانه، وضعت الحناء له في ليلة أطلت قراءة الشعر له، هنا جربت قراءة الشعر أول مرة، وهنا إلى جانبه عرفت متى أركض ومتى أقفز ومتى أسكت. قرأت له نصوص فارسية ثم عربية ثم تركية ثم شعرنا، ارتفعت درجت حرارته وصاح بكل قوته، أيقظ الناس لم أجد في البيت إلا الحناء فوضعتها على رأسه،

14 جميل أليس كذلك؟

15 نعم كثيرا.

تراجع صراخه ثم طالبني بالمزيد. نذهب اليوم هو تعب. نهضت وركضت وأنا خلفها أركض. نهق الحمار ونحن نتركه خلفنا.

وحين عبرنا من البيوت الحديدة كانت موصدة المعنى أمامي، دخلنا من الباب الخلفي وعدنا إلى الغرفة، أوصدت الباب.

- انزع ثيابك لتستحم.

رمت التي شرت الأحمر على الأرض حولت نظري له ولم أعد أنظر لها.

- ها لن تسبح؟

سكت، نظرت لظهرها العاري وتخيلت ما أمامها. إلتفت فجأة واضعة يديها على صدرها.

مدت يدها للتي الشرت الأحمر وارتدته، رأيت ما كانت تخبأ، وجع في المعدة ودوار في المخيلة وارتماء في التشوش وهزت في أركان أخرى.

تعال لتغسل رجليك على الأقل.

فتحت باب الغرفة وحملت نعلين بلاستيكيين وخرجنا إلى

الخارج حيث عدنا للتو منه، كانت هناك حنفية ماء تصب دون توقف، غسلت هي رجليها ووجهها فعلت كما فعلت وعدنا للداخل.

- فاتن يا فاتن.

جاءت العجوز مبتسمة كما تركناها.

- لقد قتلني هذا الفتى، من أين جئتم به؟

أنا من قتلها، كيف أقتلك؟ ماذا فعلت لك؟ أنت من ركضت فيّ.

نظرت العجوز منذهلة لوجهينا وإلى ثيابنا، نظرتها تقول ماذا فعلتما بنفسيكما؟ تركت ابتسامتها تعلو حيث عينيها، لمعة أسنانها تبرق في عينيها، تتكور الآن لترسم خبث قديم ولذيذ.

- ها هل رضيت عنا؟ لن تفارقنا أهلا بك معنا، هل نذهب؟

- لا، أريد البقاء هنا قليلا.

أغلقت الباب.

- متى أراكِ؟

- تعال مع شاعرك وأنا معي شعرائي، من كان شاعرك الكبير تعال معه.

نظرت لي، كأنها كانت تقيس طولي. سألتني:

- كم طول عمرك؟ أعتقد 17 عاما. أنت أصغر مني.

تكهنت بعمري، لا هي تصغرني، كيف تقول إنها أكبر مني.

خرجنا من الغرفة، بقيت هي واقفة أمام الباب وسرنا أنا والعجوز في الممر، عدنا حيث تركت نجم وثامر، ثامر الآن يستحق تسمية وجه الحصان، لقد طال وجهه. قال نجم لي:

- ما الذي أصابك؟ لقد تأخرت وأخرتنا معك.

قالت العجوز:

- هذا الفتى جبل نار، لو كان زوارنا كلهم مثله لماتت فتياتنا.

خرجنا منهم وسرنا في الطريق الممتد الطويل والمظلم الآن، قال نجم:

- كيف كانت؟

- آتش.

أطلق نجم وثامر ضحكات عالية، كنت أريد أن أكمل الجملة (إبراهيم در آتش) أو هادي في النار.

قال نجم:

- هل استعجمنا منذ أول يوم! إذن كانت طويلة بيضاء

سمراء؟ ونحن المساكين حصلنا على ما كان إلى جانبنا طوال الوقت.

طوال الطريق كان نجم يتحدث مع ثامر عن أصغر التفاصيل المملة، بل التي تتحول على لسانه إلى أمور تجلب الإشمئزاز.

تركاني لوحدي أنظر للسماء بعد أن ملّ نجم مني، تفاصيل وجهها باتت الآن ترى بعد أن غطت عينيها كل شئ، برقهما المشاغب وسمرتها الممعنة في الفضول.

استوقفنا ثامر حين وصلنا بداية شارع نادري وقال:

- أشعر بالجوع، لنذهب إلى سوق العرب.

أسوء المطاعم هي مطاعم وسط المدينة، لا يختلف الأمر حتى في المدن الكبيرة مثل طهران أو شيراز أو مشهد، الرائحة مهمة جدا قبل دخول المطاعم خاصة في الشواء، المدخنة لها دورها فلون الدخان والاحساس بقلة كمية الدسم تفضح المطعم، المطاعم المخبئة، الغريبة، والبعيدة عن الانظار، هناك تولد الوجبات الحقيقة، يضاف إلى النكهة نكهات غريبة لا تجدها في مركز المدينة المخادع. وشارع سوق العرب أو سوق عبد الحميد من تلك الشوراع التي فيها مطعم لا يعرفه إلا الباعة أو أهل المدينة. سيغلق هذا المطعم بعد أن

يموت صاحبه. في دقائق قليلة انتهينا من الأكل. وسط ضجة الآكلين فيه، كان المطعم مظلما ووسخا جدا، جدرانه سوداء وطاولاته لم تنظف منذ الصباح، والعمال فيه يتحركون بنشاط لا يتيح لهم إلا حمل ووضع الأواني المملوؤة والخالية. خرجنا من المطعم. وكان نجم يتقدمنا، كان يسير إلى النهر. سأله ثامر:

- إلى أين يا نجم؟

- إلى الدراجات. أريد أن أركب دراجة نارية.

بقرب الجسر وبجانب النهر يجتمع هناك أصحاب الدراجات النارية، يؤجرون دراجاتهم لساعات أو لدورة واحدة. على الرصيف فُرشت بطانيات وعليها خناجر وسكاكين، باعة صور للمثلات هنديات يقربون أفواههم منك ويهمسون بها، تكاد وجوههم تصدمك. باعة حشيش. ركب نجم دراجة نارية بيضاء، أخذ لفة واحدة وعاد فرحا.

كانت تركض تركض وتركض.

لم أنم حتى شروق الشمس، كل الجدران الآن تُحضر شقلبتها وشقلبتي. أغمضت روحي.

« الجبال تزهر ورحيلنا حان قطافه»

حكمة غجري من أفغانستان

اعتدت في عملي الجديد إلقاء تحية الصباح على الحَمام، بل على الزرازير لأنها هي من تبدأ اليوم معي وهي تقترب من النوافذ الكبيرة لتجمع حبات الأرز وقطع الخبز وأنا أقطعها لها.

هناك صراع دائم بين الزرازير على حبات الأرز التي تزيد عن حاجتها إلا أنها تتنازع عليها في كل مرة.

هل تختار الزرازير أيضا أجود الحبات؟ هل تميزها؟

يختلط بهم أحيانا بلبل، مميز بينهم بذيله الطويل ووقفته المرحة، إذا كان لدي تمر وعادة ما أحمل له بعضها أو أستدينها

من الزملاء المتديين. عليّ أن أكون حذرا الآن فقد اختلط بهم البلبل، مع أقل صوت سوف يغادر إلى أبعد مكان عن الصوت، علي أن أضع التمر في أبعد نافذة عنه، أي الثالثة، وأن أنحني تحت الطاولات حتى لا أزعج البقية ويشدوا انتباهه للقادم، فتحت النافذة ووضعت التمر دون أن أمد يدي، وكأنّ البلبل شمّ رائحة الجنوب، أخذ يرتل تغريدة ماضيه، تغريدة النخل. هل هو حنينه حيث تقع أرض التمور، لا يراها الآن ولا يشم رائحتها. التمرة هزت فيه ما تناساه.

تراجعت، سوف يبدأ النزاع الآن على التمر، وسوف ترتاح الحمامات من الزرازير لأنها ستتجه إلى التمر.

لم يسبق ولو لمرة أن سبقت الحمامات الزرازير، كانت الحمامات تنتظر دورها حتى تشبع الزرازير لتدخل بقوة في التقاط ما يقع تحت منقارها، وإذا كانت أكثر من ثلاث حمامات تقف كل واحدة منها في مكان تختاره بعيداً بأقدام حسب أقدامها هي، تعاود الزرازير الهجوم حين ترى الحمامات تهم بالأكل ويخفت هيجانها بعد أن تفرض نفسها.

أحيانا تتحول الزازير إلى طير جارح حين تلاحق حمامة في الجو، لم أفهم هذا الأمر أبدا لماذا يلاحق زرزور حمامة في الجو كأنه يهم بأكلها؟

هكذا تبدأ الصباحات الأولى في العمل، مهما كان الجو ومهما كانت الظروف، فُتح الباب بقوة فطار كل ما تجمع عند النافذة.

دخلت حنان، لقد حفظن اسمها، خطواتها القصيرة والسريعة ونظراتها من خلف نظاراتها تؤكد ببجاحة علميتها، قالت بصوت أعلى من قصر قامتها:

- صباح الخير.

وجلست خلف طاولتها تقلب الأوراق، تقليب الأوراق عادة لا يكف عنها الموظفون هنا رغم معرفتهم بكل تفاصيلها المملة، ورغم كتابتها في أوراق صغيرة ألصقت على الطاولة، ورغم كتابتها بالخط العريض على سبورة بيضاء.

نهضت من على كرسيها متجهة إلى أبي طالبي اللاصق عينه على الورقة وهو يكتب وقالت له:

- لقد أعيد طبع مجموعتي القصصية في بيروت.
- هل صدرت الطبعة الأولى في قم؟
- نعم والأصدقاء أصروا على طباعتها مرة أخرى، لأنها نفدت.
- جيد، أنت مبدعة، قلت لك قبل أعوام أنه سوف يكون

لك مستقبل كبير في القصة.

ضحكت وعادت إلى مكانها، قلبت الأوراق ثم أمسكت مجموعتها الصادرة من قمٍ وخرجت من الغرفة.

ما أن أغلقت الباب خلفها حتى علا صوت علاء معيدا فتح الباب، علاء بعكس أبو علي الطالبي حين دخل حتى الطيور تعلم بوجوده.

حملت عينا علاء الشر الصباحي، جلس خلف طاولته وأول أمر يفعله هو إعداد الفطور، قال لأبي علي الطالبي:

- ماذا كانت تريد هذه العجوز الحلوة؟

- صدر كتابها.

- وبالتأكيد قلت لها إنها أعظم مخرفة في العالم.

نهض من كرسيه متجها إلى رفوف الكتب، كانت مجموعتها القصصية تقف بين كتب الفتاوي وتاريخ الأئمة المعصومين ومجلة الوحدة، سحب كتابها وقال:

- ها، هل هناك إنسان عاقل يسمي كتاب (ما يبقى من الطيور) عجوز مجنونة، تبا لها ولكل من يقرأ لها.

- علاء، حرام المرأة مجتهدة وخلوقة وهي.....

كنت أتابع حديثهما وإذا بباب الغرفة يفتح ويسكتان أو

يخفضان صوتيهما، أطل مجيدي، مجيدي من أخبث سكرتارية المدير، هم ثلاث ومرات أربع وقد يزيد العدد حسب المدير وهمته، المهم ثلاث منهم لا يتغيرون مهما حدث، حتى لو تغير المدراء فهم باقون، الأول يدّعي الذكاء، لا تفوته لا صغيرة ولا كبيرة، جمع لكل موظف ملفا خاصا في ذاكرته القوية، يذكرك بعد مضي سنوات بأنك لم تقم بما طلبه منك ذاكرا التاريخ واليوم ومن حضر وحالة الطقس، من النوعية التي تخيفك ذاكرتهم وتتجمد أمامه، الثاني كان محارباً في جبهات القتال، يعرف كل الجبهات وتضاريسها، من كان معه تحول إلى قادة عسكريين بينما لم يجد أمامه إلا هذا العمل في جبهة باردة فتقبل السكون ولكنه لم يتقبل الهزيمة، مازال يزور الأماكن الحربية القديمة. يعيد معها الذكريات.

مجيدي ساعده وضع الطيران في إيران، إذ سقطت طائرة تحمل أخته كانت تعمل في الخارجية فمنحه سقوطها دفعة قوية في تثبيت قاعدته.

دخوله يكهرب الجو.

طلب مني الحضور عند سعادة المدير، يعرف أني سأتأخر كما هي العادة فطلب مني الإسراع وأخذ ينتظرني خلف الباب الموارب.

نهضت من كرسيي وخرجت من الغرفة وبينما أغلق الباب سمعت علاء يقول لأبي علي:

- مصيبة هذا الرجل، يعرف كل من يمسك قلما في هذه البلاد، ما أن تقول له هل لدى هذا الشاعر مشكلة؟ يأتي لك بقائمته الحمراء، في الفترة الفلانية كان يأكل مع اليسار وبعدها مع اليمين. كان قبل الثورة وبعدها.

حين دخلت غرفة المدير كانت الوجوه نفسها التي التقيتها قبل عام، وجوه رأت الكثير من الأماكن، خاصة خانم مهربان التي درست في باريس وبمنحة في زمن الشاه، تجلس الآن إلى جانبها نموذجا عكسيا وثوريا إلى آخر قطرة دم ودمع.

الآخرون توزعوا على تايلند والهند والعراق ودول أخرى تظهر مع كل حديث جديد، الأهم فيهم هو من كان في تايلند، الأهم سياسياً ويعقبه سياسيٌ أيضا درس في إصفهان لكنه تجول في عواصم عديدة يركز دائما عند حديثه على العواصم فقط، الآخرون لا يمكن التكهن بخطورتهم لأنهم قليلو الكلام ومن المهم حضورهم في مثل هذه الاجتماعات.

حين أدعى لمثل هذه الاجتماعات إذن هناك خطب أدبي ما.

بات عملي منذ فترة قليلة هو سماع إسم شخص صدر له كتاب أو لم يصدر لأعرض كل ما يتعلق به والأهم هل هو معنا أم ضدنا.

أكثر من هم ليسوا معنا يكونوا مع أنفسهم. ومنذ البداية طلبتُ أن يُخترص رأيي بصورة شفوية وألا أكتب عمن يسألون عنه.

طرح اليوم شاعران وقاص وكلهم يكتبون في صحف اليسار.

ذكرت كل ما يتعلق بهم بسرعة ودون لف ودوران فكلما طال الحديث قرب تقيئي. تعلمتُ كيف ألخصّ ما يحتاجونه في جملة واحدة.

هناك معلومات تصل من أماكن لم أعد أهتم بها، عدت للغرفة بعد أن تركت الدائرة تتخذ إجراءاتها، تلقفني علاء وهو يعرف أني بعد كل إجتماع أخرج من المبنى، قال لي:

- سوف اخرج معك.
- ولكن الثلج يهطل.
- سوف أكون مجنونا اليوم مثلك.
- حسنا.

انتظرت علاء ليرتدي معطفه، كنت أسير ببطئ حتى يلحقني ونخرج سويا، عاد بسرعة وخرجنا، قال لي:

- ألا تشعر بالبرد؟

- لا؟

- بماذا تشعر الآن تحت وابل الثلج هذا؟

- لا شئ؟

- ولكنك لا ترتدي غير القميص، هادي أريد منك المجئ معي إلى مكان خاص، وما هو رأيك بخانم أسدي؟

أعطيته ما يريد سماعه.

- هادي تعرف جيداً، هي تقدرك كثيراً وقد تقدمت لها ولكن أبوها لم يوافق وكذلك فعلت أمها بعد أن كانت موافقة، أبوها خائف لأني لم أحصل على الجنسية بعد ولن يكون لي أي مستقبل في هذه البلاد أو في مكان آخر، وأنت تعرف جيداً أن من لا يحمل جنسية هنا كيف يكون وضعه؟

كنت أفكر في من ملك جنسيته هل يملك كل ما طمح إليه؟

- هادي عليك الذهاب معي.
- بالطبع سوف أذهب معك، ولكن ألم تقل أنهم رفضوك فما الذي أستطيع فعله؟

قادتنا خطانا إلى خارج العمل ودخلنا في حديقة وقف في بدايتها منحوتات لا تفهم، رئيس البلدية رجل مغامر في وضع مثل هذه المنحوتات أمام الحدائق، كان عسكرياً، فعل ذلك أيضا في المكان الذي ترأسه، أحضر لجنوده سيارات مرسيدس بعد أن كانوا سواقا لسيارات لا تتجاوز سرعتها ال110 كيلومتر في الساعة. هكذا هي الحدائق في طهران فضفاضة وعميقة ومشحونة بالأخضر.

- لا لن نذهب إلى بيت أسدي بل إلى مكان آخر، إلى جماعتك.
- جماعتي أنا؟
- نعم جماعتك الغجر، سوف يأتون بعد أيام مع ذوبان الثلج.
- علاء أنا لا أفهم ما تقوله، ما علاقتي بالغجر وبزواجك؟
- هل تذهب معي أم لا؟

هذه الجمل التي تحدد إجابتها الأعوام القادمة وكيف تسير

وإلى أين ستنتهي.

- سأكون معك ولكن ما دخلي أنا بالغجر؟

ظننت لوهلة أن علاء على علم بفاتن، فاتن التي غمست نصوصها النارية بي. ولكني نسيت، نسيت من كنت، كيف هم جماعتي. قد يشير إلى التهمة التي أُلصقت بنا قبل أعوام، نحن ننتمي للغجر، أو أصولنا من الغجر. غضبتُ للحظة ثم تذكرتُ فاتن.

قال:

- أنت تعرف ما أقصده؟ المهم ستذهب معي.

حكمة خشاب من الأهواز

(أنتم العرب تخافون الطيران، طر سوف تتبناك العصافير)

تخثر عقلي بالشعر والنار الإبراهيمية، وشوارع (خزامي) تمطر صباحاً بشراً وذبابا، الرجال يمشون على مهل بل على أقل من مهل بينما النساء هن من يسرعن في سيرهن ملطخات عباءتهن بالوحل والطين، هذه الحركة تبدأ مع صوت الفجر وتستمر سرعة النساء حتى تبدأ حركة الطلبة في الذهاب إلى المدرسة حينها تخفّ السرعة النسائية إلى أقصى درجة وتستحوذ على الفكين.

كان عقلي موزعاً بين وجهها وتقاسيم الجسد الراقص والمقلوب والبحث عن بوابة تخرجني مما أنا فيه.

كنتُ نائما فوق سطح البيت، بل لا أبدل النوم على السطح بغيره، مئات النصائح سمعتها من العجائز وهم ينصحون بالنوم على السطح، لكن ما يبقيني هناك: قاسم وهو يتقرب من بنت الجيران عند الساعة ثلاث صباحا، نعيم الطويل جدا وهو يمارس العادة الجنسية عند الخامسة، عباس وهو يضرب من قبل أبيه مع شروق الشمس، كنت أعرف قصصهم. كنتُ أكتشف كل صباح المدينةَ من فوق السطح.

ها هو أبو راشد موشي يخرج من بيته. يسكن هو وإخوته الخمسة في شارعنا. كان محبوبا من قبل الجميع، والسبب كلنا سمعنا عن الجار الذي لم يسمح لجيرانه بترك المنطقة أو البيت وسدد دينهم ليبقوا في وطنهم الأصغر، هو هذا أبو راشد من يقوم بذلك لجيرانه، موشي. لكني كنت من القلة الذين يعرفون أنه اشترى البيت وبات باسمه الآن والعائلة التي كان من المقرر أن تطرد تدين له، كنت أعرف خططه، نفسُه طويل مع العقارات ويعود الأمر إلى فترة الحرب، كانت الناس تهرب وهو يحاول شراء المنازل المهدمة، وينتظر انتهاء الحرب للعودة إليها، كان عمر الأب للعائلة المنكوبة هي عمر حرب وستنقضي على مهل ويحتل البيت، حتى العائلة أو العوائل تدعو له بطول العمر غير دارية بمصيرها، وغير مدركة أنه

ينصب شباكه على كل فرصة يستطيع فيها استغلال وضع العائلة. وسوف تطرد العائلة والناس يعاتبونها: ألا يكفي أنه تحملكم كل هذه الأعوام ولم يأخذ منكم تومانا.

ها هو يخرج وهو يصلي على النبي بصوت عالٍ. جمع القمامة في الشارع وأشعل فيها النار.

من يكشف لي وجه هذه النار التي تحوّل كل ما أراه إلى صور مقلوبة؟ وكيف أفهم ما يقوله الآتش؟ من الآتش سوف أصل للآتشة.

عظيم، ليس هناك غيره، الوجه الأبيض الصامت والأنيس والشعر القصير دائماً وأبداً والذكاء.. لن يخذلني، في كل مرة يفاجئني في القبض على ما أريده، امنحه فسحة فيأتيك مفاجئاً، من الصعب فهمه حين تجلس أمام صمته الطويل وكل حركاته الصامتة، يقوم بكل أعماله أمامك دون أن تشعر بالصوت، وكأنه ألغى الصوت من حياته.

عبرت الشوارع والفجر يوشك على نهايته متجهاً إلى الدرويشية، بعد دقائق كنت أمام بيته، حين فتحت أمه الباب لي ونظرت إليّ شاهدت الرجاء فيّ، ملك عظيم صوته منها، صوت يذهب البرد ويزيح الحر وفي الصباح لا تجد أمامك إلا

إطراق رأسك والسكوت.

عظيم يصغرني بعام إلا أنه يكبر الدرويشية ولن تستطيع إستيعابه في أعوامه القادمة، هكذا خرج لي يصغرني بأعوامه المختلطة بنعاسه.

- عظيم أريدك في أمر غاية الأهمية، أريد الشعر.
- ماذا؟
- أريد من يعرف كل الشعر واليوم.
- أمهلني حتى المساء.
- لا، لا وقت لدي.
- عصراً سوف أُجيبك.
- هل تعرف شعلان الإعطيو؟
- عصرا يا هادي، في العصر.

كان ينظر إلى الأرض ويجيب بكل برودة، هكذا أسأت فهمه في أول لقاء واضطررت للابتعاد عنه، ثم فاجئني ببركان في داخله، فبعكس برودته الظاهرة هناك بركان يعمل في عقله وما نظراته للأرض إلا صمام أمان.

إلى العصر كنت أقلب الشوارع وأقلب كل التفاصيل مضيفاً لها زيوت لقاءات قادمة وفحولة شعرية مقلوبة على

عقبها، أنشد لها الشعر رجلاي إلى الأعلى ورأسي إلى الأسفل فيخرج الشعر أسرع.

قطعت ظهراً مسافة طويلة وانتهى بي المطاف بجانب النهر. مررت من المخفر المخيف، مخفر الشرطة الذي لا يشعرك بالأمان.

كان الجاموس ينزل إلى النهر مغطياً المساحة الرملية، يعبر بجانبي غير مبالٍ بي، يقودها طفل في العاشرة من عمره، يحمل عصى غليظة، يترك الجاموس أثراً هادئاً مثل خطواته، هناك نظرة سعيدة في أعينها بيد أنها ليست أسعد من نظرة الطفل وهو يسوقها إلى الماء.

دخلتْ الجواميس الآن الماء ولا يظهر منها إلا رؤوسها، بحثت عن الطفل لم يكن بقربها ولا على الساحل.

عدت أتابع تدفق الماء وتدفق ما لصق بذاكرتي من النار.

فجأة لمحت الطفل يعتلي إحدى الجواميس، راح يتحدث معها بأسماء، يلعن من تبتعد ويمزح مع من تهرب منه.

ابتعدت جاموسة عن القطيع المستلقي في النهر، وصلت الآن إلى نصف النهر، كان الطفل يتبعها شاقاً طريقه خلفها.

كم ابتلع هذا النهر من بشر.

ترددت الأسماء التي غابت في هذا النهر، أبناء جيران، من يسكن في شوارع قريبة منا وبعيدة عنا، تيار النهر قوي ويجرف من يدخل فيه. المسالخ التي توزعت على شاطئ النهر تتجمع حولها زعانف أسماك القرش وهي تلتهم أمعاء المواشي المذوبحة. زعانف مخيفة لكنها لا تشكل خطرا على البشر، بعكس أسماك القرش في مدينة عبادان الآتية من الخليج، تلك تتجن من رائحة البشر السابحين في النهر.

الأكثر إيلاماً هو غرق الفتيات في النهر، خاصة من يأتين من مدن أخرى، حكاية غرقهن تطول وتدور على الألسن أكثر من البقية، يغرقن بصمت فهن لا يعرفن لا لغة النهر ولا لغة من سكن النهر.

أكثرهن استسلمن بكل مدنية للنهر.

لكن هذا الطفل كأنه يلعب مع النهر ويستهزأ به كما الجاموس.

للشمس لغتها الآرقة كما التراب الذي يلهث تحت قدمي عطش لكل نسمة، نزعت ثيابي ونزلت للنهر، الماء بارد وحركة

تياره تبعدني عن مكان ثيابي، عبرت للضفة الأخرى، أشجار كثيفة، ارتميت على الساحل، مراقبا الجاموس من بعيد، شعرت بهزة خلفي، خنزير بري، أنيابه بارزة ومخيفة، نظر إليّ، ثم غاب وسط الأشجار. اقترب العصر والنهر لم يعد يجدي.

عدت لثيابي، الجاموس مازال يلعب بماء النهر والطفل ليس معها.

وصلت للدرويشية. الباعة للتو أخذوا يخرجون لتلقي الصفعات الأخيرة من الشمس، إتجهت إلى بيت عظيم، يقع بيتهم وسط الدرويشية. حيث فتح على رأس شارعهم محل لألعاب الفيديو.

كنت أمشي بصورة متعرجة لكي لا أصطدم بأحد يعيقني، وقفت أمام باب بيتهم، كانت ومازالت أمام باب بيتهم حظيرة أبقار مصغرة، ذات سور واطئ ونفس الفتاة تضع للأبقار الماء وقد رفعت ثوبها محكمة شده على وسطها وهي منحنية، ثوبها الداخلي الأرزق القطني يتبلل بقطرات الماء الساقطة من الدلو الحديدي، كانت تتحدث بسرعة غريبة فلم أفهم هل هي تشتكي أو تشكو لمن حولها؟

لقد وضعت الحناء لأرجل بقرة، أكبرهن وأسمنهن ويتكسر

لونها بين الأبيض والأسود.

بُنيت هذه الحظائر حين فتحت أبواب القروض أمام الجميع، والكل أخذ قرضه بطريقة ما، المهم هو الوصول للقرض، صاحب هذه الحظيرة رأى أنّ أفضل درب للوصول إلى القرض هو تسلق هذه الحظيرة ورمي بناته فيها.

خرج عظيم وكنت ما أزال أراقب الثوب الأزرق القطني المبلل.

- تفضل للداخل.
- لا، قل لي إلى أين سنذهب؟
- تعال للداخل.

دخلت، أعلم أن عظيم سوف يشرح الموضوع وباختصار، الدخول هو الوصول بسرعة إلى حيث نجلس لأن أكثر البيوت بل كلها ما أن تدخل تجد نفسك أمام باب الديوانية.

مازال الناس يفضلون الجلوس على الأرض بدل الجلوس على الكنبات، وإلى هذه اللحظة يكرهون الجلوس على الكنبات فهي تذكرهم بالدوائر الرسمية والمراجعات التي لا طائل خلفها، هكذا يتعلل القائم من على الكنبات حين يهم

بالوقوف والجلوس أرضاً.

لم أرغب في مراقبته وهو يعد أكواب الشاي ليسكبه لنا، كنت أنظر لوجهه وعلم هو بنظراتي قال وهو لم يزل يرتب الفناجين:

- هناك مجموعة من الشعراء يجتمعون كل يوم خميس مساء في بيت الحاج عوفي، سوف نذهب سوياً إلى هناك.

ودفع الصينية نحوي، كيف أتحمل يومين؟ كنت أحتسي الشاي الحار وأعذب شفتي بالحرارة.

ليس هناك المزيد هكذا همس وجهه، خرجت من عنده وسرت في الشوراع الجانبية، لو حفظت الشوارع سوف تنتهي بك إلى بيتك دون عناء، فكل الشوارع مترابطة ببعضها، الشوارع الخلفية غير المكتملة والسرية على من لم يسكن هذه المنطقة، هناك في الخلف تتم الصفقات الصغيرة والكبيرة ويمسك بالضعيف من الفتيان وأحيانا ليلا القوي أيضا ليؤخذ خلف أنابيب النفط وتنتهي رجولته.

لم يكفني النهر ولا رماله لقضاء ما تبقى من وقت ولا أسراب

الجاموس المخيفة من بعيد، هربت إلى السوق.

في مدينتي حين تقول السوق لن يكون أمامك إلا سوق واحد (نادري)، بل حتى المدن الأخرى لا خيار أمامها إلا نادري، تجد فيه ما يندر. مزدحم هو إلى أقصى حد والباعة الجوالة والجالسين على الأرض أكثر من واجهات المحلات.

كانت خطاي تبحث عن مكان قد رأيته أو هكذا تصورت وعدتُ الآن أبحث عنه، الساعات هنا تذوب مع الخطوات وإذا لم تكن تعلم وجهتك فسوف يسرقك الوقت.

دوار الشهداء هكذا سُمي رغم مروري من أمامه عشرات المرات لكني إلى الآن لا أعلم ما هو شكل التمثال القائم وسطه، أعتقد أنّ النهر والجسر الهلالي سرقا من التمثال مكانه.

صرخ الدم فيّ، هذا ما كنت أبحث عنه.

كان أول دخول لي للمكتبة، ارتفعت الكتب تكاد تلامس السقف، محيرة وكريهة ومملة، الأغلفة تذكرك بكل المصائب التي سببتها لك منذ تعرفك عليها، وبكل الضربات في الصباح الباكر وكل الامتحانات والحفظ لنصوص تحرقها مع

نهاية العام الدراسي.

كانت الحركة مزدحمة بين الكتب وتعثرت نظراتي وأنا أنظر للأغلفة، كيف سأجد النار وسط هذا البركان والثلج والرياح؟

اقتربت من رجل ملتحي له عينا صقر صافية ولا معة، مظهره يدل عليه ويدل على أنه يحمي ما اصطف، سألته:

- أين أجد الشعر؟

أشار إلى قسم كان أمامي طوال الوقت، وعاد يدير عينيه في المكان.

تقدمت من الأرفف الملونة الكريهة، كنت أبحث عن (إبراهيم در آتش)، النار هي المهمة، أتقدم ثم أعود من جديد إلى بداية الرف ثم تقدم وعودة حتى شاهدت نهاية كل ما اصطف من الكراهية.

عدت أستنجد بذي العينين ليسعفني على إيجاد النار.

- أين أجد كتاب (إبراهيم در آتش)؟

- هل هو ديوان شعر؟

- نعم.

- لمن؟

- الحقيقة لا أذكر اسمه، هو يشبه.....

كان ينظر إليّ وينتظر ولكني لا أعرف إلا شباهة الاسم بالشامبو قلت له:

- اسمه شاكلو.

- أنت تقصد الشعر المترجم، تجد الشعر المترجم هناك.

وأشار إلى رفوف أخرى بغيضة، لن أجده هنا، كيف كنت تلفظينه يا فاتن؟ كان جميلا بين أسنانك.

رجعت لأخرج، فجأة ظهر اسمه لي عدت للرجل الملتحي وقلت له:

- إسم الشاعر شامو.

- شامو، هل تقصد شاملو؟

- نعم هذا هو، شاملو شكرا يا رجل لقد أنقذتني.

وكنت بمحاذاته أشدّ على يده. سحبَ يده مني بقوة وقال:

- ليس لدينا مثل هذه الكتب ابحث عنها على الرصيف.

لقد ارتكبت خطأ، ما كان عليّ البحث هنا، نظرته هي نفس النظرة التي رماني بها شيخ حين سألني عن جدي الرابع ولم

أعرفه، هكذا أحسست وهو ينادي صديقه ويهمس في أذنه، خرجت هارباً.

اللعنة عليك يا شاملو وعلى كل من في نارك، هذه علائم تدل على أنّ هناك خطرا أكبر يوصلني للمجهول، قد أتهم بقضية أكبر مني.

كل من قبض عليهم كانت الكتب السبب، لم يخرجوا أو خرجوا ووضعت عليهم علامات حمراء لكي لا يقترب منهم أحد.

للتو فهمت كم الكتب مخيفة وليست فقط مملة.

لماذا لم أفكر بالأمر، هناك دائماً مجهول يتعلق بالكتب، هناك مجانين والكفرة تلعنهم أمي بين عام وعام.

كنت أصطدم بالداخلين والخارجين وأنا أهرب من المكتبة.

ما هي إلا بضع خطوات إلى الأمام وفي الجانب الآخر من دوار شهداء وإذا بي أرى باعة كتب جلسوا على الأرض، كانوا ثلاثة رجال، كيف لم أرهم في السابق؟ اقتربت من الأول، كان يتحرك من زبون إلى الآخر يحدثهم عن بضاعته، حين سمعت ما يقوله لهم اتضح لي الشبه الكبير بينه وبين جابر الخضرواتي

في سوق الدرويشية الذي نزع ثياب رجال الدين ولم يعد يقرأ أي كتاب.

عبرت للثاني، كان عابس الوجه يشير بإصبعه ولا يتكلم، خفت الاقتراب منه، وجهه يريد صفع السماء. وقف فوق رأسه شاب يتحدث بحماس عن كتاب بيده، بينما البائع مطرقا رأسه،الثالث هو أكثرهم كتباً جلس على الرصيف إلى جانب كتبه يقرأ ولا يرفع رأسه إلا إذا سُئل، نظرت للكتب النائمة الوسخة، كانت وسخة وأغلفتها مهترئة، بعض الأغلفة انتشرت عليها بقع السوائل أو زيوت محركات.

رفعت أنظف كتاب وفتحته، كانت تفوح منه رائحة بصل وتشبعت أوراقه بدهون خضراء، قربت الكتاب من أنفي كانت رائحة مرق السبزي المشهور.

أغلقت الكتاب وأرجعته لمكانه، اقتربت من البائع سألته:

- هل لديك شعر؟

لم يرفع رأسه.

- هل لديك ديوان إبراهيم در آتش؟
- تجده هناك.

قالها ولم يرفع رأسه ولم يرفع حتى إصبعه، إذن الكتاب هناك، النار هنا.

بدأت مع الكتب الممتدة أمتاراً، رفعت كتاباً قديماً فتحته كتب على أول صفحة إهداء:

به دوست عزيزم أميد

تقديم مي كنم

دوست دارم

ميهن[16].

فتحت بقية الكتب بالترتيب، كنت أنظر إلى بدايات الصفحات، الكثير منها مهدى بأقلام مؤلفيها، إهداءات ولوعات وشكايات وحب ودموع وضحك وسخرية كلها على الصفحات الأولى.

حملت كتاباً لونه غريب وأنا أرفعه انفتح على صفحة خطت عليها خطوط حمراء وتعليقات وهوامش:

الخبر الذي يورده ليس صحيحا أخذ هذا من كتاب العلامة.

كنت أتخيل أصحابها وهم يكتبون هذه الجمل والتعليقات والاهداءات.

---

16 أهديه إلى صديقي العزيز أميد، أحبك ميهن.

- هل وجدت كتابك؟

سألني بائع الكتب وكان يجمع كتبه للمغادرة.

- لا لم أجده.

- خذ هذا هو الديوان، إذا أحببت هناك أعمال أخرى منه بإمكاني غداً إحضارها لك.

- غداً سوف آتي إليك ولكني أريد هذه الكتب.

كنت أحمل أكثر الكتب هوامشاً، نظر إليّ البائع وقال:

- كم عمرك؟

- 18 عاماً.

كذبتُ عليه.

أخذ الكتب مني وقلبها حتى شككت أنه لن يعطيني إياها.

- هل تفهم هذا الكتاب؟ هذه كتب صلبة جدا، (خشم وهياهو[17]) (تاريخ بيهقي) (ديوان مولانا) جنونا ممتعاً يا فتى.

---

17 الصخب والعنف لفاكنر.

جمع كل كتبه واضعاً إياها في صناديق كارتونية وكنت أحمل معه، التفت إليّ وقال:

- سوف أخصص لك تخفيضاً.

سلمته ما طلبه وعدت والظلام مخيم على دوار الشهداء وعلى نادري وكل من سار فيه. لم أعد أملك نقودا لأعود للبيت، فسرتُ الطريق كله. بعد ساعتين وصلتُ للبيت. صعدت فوق السطح، كانت الطقوس المسائية على السطوح قد بدأت، لم أراقب تطورها.

****

مرّ اليوم وأنا مدفون بين خطوط الكتب والهوامش، كنت أجد الجملة تتفجر في الهامش إلى عشرات الشروح والإعادة ودائماً هناك أسماء وعناوين وكتب يشار إليها.

لم أنم، حين أتعب أجلس لأحفظ من ديوان (إبراهيم در آتش)، أمي لأول مرة تحضر لي الإفطار فوق السطح الذي بنيت لي فيه غرفة من الصناديق، لا تفعل ذلك حتى حين أمرض، وهي غرفة مشتركة مع أخوتي، كانت تدخل الغرفة بصمت

مقلدة جارتها سارة التي تفهم عنها القليل جدا حين تتحدث معها ولا تقول لها إلا كلمة واحدة (بله) هازة رأسها وجذعها، إذا ضحكت سارة ضحكت معها وإذا بكت بكت معها، وإذا غضبت تغضب معها. كانت سارة تجلس لساعات مع أمي تحدثها عن حياتها بلغة لا تفهم أمي منها إلا بضعة كلمات، لكنها تتفاعل معها. ثم تنطلق أمّي ذاكرة قصصها لسارة.

ثم تسجل كل اللحظات حتى خروج سارة منا، تنادي: زينب ما الذي قالته حين بكت؟ سعاد لماذا ضحكت سارة؟ هادي لماذا هي غاضبة اليوم؟

كل من يمر من أمامها أثناء حدث مهم يدور بينها وبين سارة تسجله لكي نعيد الحوار مترجما لها.

مساءً أجبرت على الخروج من الغرفة إلى ساحة المنزل، مساءً كان البعوض وحشرات ملونة تسقط بين دفتي الكتب حتى زاد عددها على الكلمات، حشرات فصل الصيف الأكثر عدوانية والتي أعطيت أسماءً مخيفة، أكثرها خوفا هو (قراص الخصاوي) حشرة مقاتلة ذات دروع صينية وفك طاحن وسريع وطائر ما أن يرى حتى تجمع يديك تحمي رجولتك من نهب مؤكد، ليس الرجال وحدهم من يفعل ذلك حين ظهوره بل

حتى النساء. تروى عنه قصص دامية وكلها تتعلق بالخصي والإخصاء، قراص الخصاوي أول حشرة سمعت بها تنتقم للنساء ومن النساء.

الليل كان سريعاً مع آتش إبراهيم وإخوته، مع طلوع الشمس عدت للغرفة، هواء المكيفات صفعني بقوة حتى شعرت بأني لن أقاوم صفعته المنومة.

فتحت باب الغرفة فالتقيت بهواء بارد كسر آخر صحوة تمكن الإنسان من السير، استلقيت على فراشي، سرتيب وضع رجله العارية على فراشي، دفعتها برجلي بقوة لكنه لم يصحُ، قيس يشخر كما هي عادته.

استيقظت عصراً وذهبت مسرعاً إلى بائع الكتب، كان يضحك وسلمني الكتب قائلاً:

- خذ هذه بعض كتب صاحبك ومرّ عليّ سوف أعزل لك كل كتاب يصلني منه، وهذا الكتاب هدية مني لك.

- شكراً.

- أكتب لي الكتب التي تودها وسوف أحضرها لك. عليك أن تقرأها لأنها ممنوعة. هكذا تدخل الكتب إلى

حياتك والسبب أنها ممنوعة. الكتاب الممنوع مهم جدا وستجدها دائما هنا. المكتبات في الجهة الأخرى منا جبانة.

- سوف أزورك بين فترة وأخر.

أهداني كتاب «آنسة هيام» لمصطفى أمين. كتاب كبير لكن صورته الباهتة جميلة.

أخذت الكتب وعدت للبيت وكانت الهوامش تشجب بقية الخطوط. لم يخلو كتاب من التعليقات، كانت غير مفهومة والخطوط الحمراء أو الزرقاء أو التي مُحيت تجعلني أركز على سبب الاهتمام بها.

****

جاء اليوم الموعود وكنت متحفزاً للقاء الذي سيمنحني لمس النار والتقدم خطوة أمامها، اتجهت إلى عظيم ليأخذني حيث أتسلح بالنار لمواجهتها. اكتشفتُ سلاحا بالصدفة على الرصيف، وحان الآن وقت التسلح بالسلاح الأكبر، لن تسقط كلمتي أمامها على الأرض، نحن نكتب أفضل. سأثبتُ ذلك.

عظيم كان مستعداً أمام باب بيتهم، خرجنا من الشوارع الفرعية الملتوية والتي تحمل ضياعها لمن يدخل فيها لأول مرة، ويحمل الخوف الذي بناه عنها مدراء الشركات والمصانع. وصلنا إلى الشارع الرئيس الذي لا يخلو أبداً من السيارات وفي أي ساعة، لا مكان آخر إلا (نادري) مركز المدينة يجب الهبوط لتغيير الجهة، وحين ترجل كل الركاب طلبت من السائق التوجه بنا مباشرة (خشايار)، اعترض، عظيم فالأمر لن يستغرق منا الوقت الكثير لنغير سيارة بأخرى تتجه بنا إلى هناك، لكني أريد الوصول بسرعة.

اتجهت بنا السيارة إلى خشايار حيث بيت الشاعر حسن الحويزي.

الشوارع في خشايار مزدحمة بالمارة، الزحام هنا مشاكس، هناك حركة وأيدي تُرفع وأصوات تلقي التحية بصوت عالي، شوارع خشايار تجلب الدوار لي متى ما وصلت إليها، إذا كانت شوارع الدرويشية متاهة فخشايار لغز ملغوم، لم أعرف أبداً من أي شارع دخلت ولا من أيها خرجت.

وصلنا إلى البيت المنشود، طرقنا باباً مفتوحا فتناهى لنا صوت يدعونا للدخول قبل أن نرى صاحبه، كان صوته حميماً فدخلت من الباب باحثا عن هذا الصوت، رحب بنا شاب بحرارة تفوق ما بدأه وأدخلنا الديوانية.

سلمنا فوقف الجميع لنا، هناك من نظر إلى وجوهنا وهناك من لم يعتني بنا وأكمل حديثه، وهناك من قام بتثاقل، جلسنا حيث تترك مساحة لا تستطيع الهرب منها مخصصة للصغار.

تحدث رجل في الأربعين من عمره وكأنه يكمل ما قطعناه:

يحسن الذي قوامچ لا يحسنه

البدر شع ابجبينچ لا يحسنه

ما هذا الوعايد لا يحسنه

الوعد كل يوم تلفين ابتحيه

قال آخر يرتدي دشداشة بيضاء وكوفية:

- الله يرحم عبود.

- هذا البيت لعبود.

عبود ! هذا آخر إسم توقعته لشاعر، منذ تعرفت على هذا الإسم وأنا أسمعه مستخدماً للسخرية حين ينعت أحد بالجهل أو بالسذاجة أو أحياناً كثيرة كإهانة، وفي آخر مرة سمعت هذا الإسم أدى إلى شجار.

عبود ! هذا الشعر لعبود؟!!

تتالت الأبيات من عدة أشخاص ناقلين عن عبود حتى انتهوا إلى إسمه الكامل عبود الحاج سلطان.

كان عبود الآن مع تلاحمه بالحاج سلطان معنى مهيب وكبير، كانت أجواء سحرية تجلب الصمت بينما احتكاك الأبيات ببعضها تولد انفجاراتها فيّ.

جلس في الديوانية ستة أشخاص متقاربين من بعضهم، بينما الشاب الذي استقبلنا كان يصبُّ الشاي، ولكن لم يكن

للآتش أي أثر هنا، مازال الشاب يحمل البسمة رغم انشغال يديه بحمل الأكواب ووضع غيرها، وكان يستقبل الشعر كما استقبلنا. كانت صورة معلقة على الجدار، هذه الصور تفضح من علقها وإلى أيّ مدينة ينتمي. صور قديسيين، لا أحد يقول أبدا إنهم قديسون، وكل ما في الأمر أن لهم كرامات سحرية، كل قديس يظهر الداعمين له من أي مدينة، فلكل مدينة قديسها، يكفي أن تعرف صاحب الصورة حتى تتأكد من أي مكان جاءت هذه العائلة وتتعصب لمن ولهجتها، الصورة القدسية تفضح كل ذلك. المشكلة مع القديسيين الجدد أنك لا تعرف من أين جاؤوا.

بينما كنت أحتسي الشاي وأستمع لما يدور، دخل شخصان يرتديان بذلات سوداء، أنيقان جداً ويسبقهما عطراهما، سلما وفتح لهما صدر المجلس للجلوس، كانت حركة الاستقبال بعكس ما حدث لنا، نهض الآن الشخص الذي جلس مستمعاً للشعر هازاً رأسه يصب القهوة لهما، قال عظيم:

- هذا هو الشاعر حسين الحويزي.

ولكني لم أكن مع الحويزي كنت مع شخص آخر لم أره حين دخلت وهو الآن يجلس أمامي له عينان تشع شيطنة تجوبان الوجوه، محركا أصابعه على شاربه الكث ومهما حاول لمّ

جسده لا يطاوعه جسده الأسمر الضخم.

في خضم تبادل التحيات كنت أنظر للوجوه التي دخلت وللتو لاحظت أن الجميع يرتدي الدشاديش البيضاء إلا شخص واحد ارتدى دشداشة شتوية.

الرجلان القادمان أحدهما شاب والآخر أكبر منه، شاربه خُط كما شارلي شابلن أو هتلر، أعتقد أنّ هناك تشابها كبيرا بين شاربي الرجلين، حلق الشاب ذقنه وشاربه، كان يوجه الحديث والترحيب إلى الأكبر سناً مركزين على كلمة دكتور.

سأل الملقب بالدكتور حسن الحويزي عن حاله فقال الحويزي:

يقول محيبس الهليجي:

مماشي الدهر ياذني ويعمن

عليّه ويرحن اعيوني ويعمن

الوجع من غير راعيه ويعمن

جذب ياللي تقول البيك بيه

أجابه الدكتور:

عليش اتلومني للظعن چبريت

السبب لأن علتي بحشاي چبريت

من يمناك أريد فرد چبريت

و أچمل النار البقلبي سريه

- خير دكتور ما بال النار معك؟

ها قد دخلنا للنار للآتش.

- مات اليوم ملا شملان.

- شملان مات! كيف مات؟

- مات في قريته وحيداً، كنت ذاهبا صباح اليوم لزيارته فوجدت الناس تستعد لدفنه، وذهب معه كل ما حفظه، تعرف ملا شملان هو أكثر شخص يحفظ ما كتب منذ عشرات الأعوام وقد ذهب كل شئ معه، وتعرف أنه أمّي لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة. قبل أعوام طرحت عليه موضوع كتابة كل ما يحفظه ولكني انشغلت بالتدريس، مع الأسف.

- لي أعوام كثيرة لم أره منذ إصابة رجله في حادث انقطع هو عن زيارتي.

وعادوا إلى حديثهم مرة أخرى، مللت الجلوس بعد أن دخل الدكتور وأخذ الحديث حيث يحب عن نفسه وما كان سيفعله

لو بقي من بقي على قيد الحياة، بينما الشاب الجالس إلى جانبه صامت غير مبالي بما يدور حوله.

انحنى مرافق الدكتور إلى الأمام وقال بصوت لم يكن متوقعا محاولاً السيطرة عليه لكنه انفلت زاعقاً:

- دكتور في الطريق تحدثت عن تأثرنا بالشعر الفارسي والآن وقت مناسب لإكمال الموضوع؟

ساد صمت لم أتوقعه وتعلقت الأنظار بالدكتور قال:

- حسن هو موضوع مطول والوقت غير مناسب.....

قال الرجل الأكبر سنا فيهم:

- دكتور عرفتك تعرف الأصول وتحسب لها ألف حساب، نحن أُصل ولا يخرج عنا غير الأصل.

وتحول الموضوع إلى نقاش حارق أشعله المرافق للدكتور وكان هو بطل هذا الاشتعال. كنتُ أسأل عظيم عمن جلس في الديوانية. وتبيّن أنه لا يعرف ولا واحد منهم. ولا حتى صاحب البيت. نظرتُ للرجل صاحب الشارب الكثيف واقتربتُ منه. حين بتُّ بجانبه نظر لي من طرف عينه ثم تابع النقاش الدائر. سألته:

- لماذا غضب ذلك الرجل حين طرحوا موضوع الشعر

الفارسي؟

أعاد النظر لي وهو متكئ على مخدة.

- وما دخلك أنت؟

- لأني أريد تعلم الشعر.

- ها، شوف، من أجابهم، هو غازي شعلان، كان محاربا في فلسطين، وبعد أن عاد من الحرب، انضم إلى حزب تودة، ثم بات كما تراه الآن متعصبا للعرب والعروبة.

لم أفهم ولا كلمة مما قاله. وأكمل.

- الدكتور إنسان خلوق، يعني الآن بات إنسانا خلوقا، ويريد الدخول في الانتخابات، وما مجيئه هنا إلا من أجل التذكير بأن قصيدة «باقوا القاع» له. وأنه كتبها باسم مستعار خوفا من الحكومة، وقد انتحلها الكثير وكتبها باسمه.

سألته:

- قصيدة باقوا القاع؟

- سوف أعيطك إياها، قصيدة وطنية كما يسميها صاحبها. ومن برفقة الدكتور هو بابك محمدي، شاب

طموح منضم للأحزاب الجديدة الإيرانية، يريد خلق حالة توافق بيننا وبينهم.

- بين من ومن؟

- بيننا نحن وهم.

كنتُ أهمّ أن أسأله من نحن ومن هم؟ لكني أعرف من نحن ولم أكن أعلم بال «هم» بالتحديد.

وضع يده على ظهري وقال:

- تعال معي الليلة وسوف أعطيك المزيد.

نهضتُ مبتعدا عنه، ولصقتُ نفسي بعظيم.

لكني مازلت أبحث عن الآتش وسط هذه الشعلة التي فجرت غير أنها بعيدة جدا.

****

- عظيم أريد أن نذهب لغجري.

نظر للأرض، رفع رأسه، نظر في وجهي وقال:

- مساءً سوف نذهب، تعال الساعة الثامنة مساء.

وعدت للبيت، ظهيرة المدينة لا يطاق.

مساء في السابعة والنصف كنت أمام منزل عظيم، فتح لي الباب وكان مستعدا للخروج، أخذني لنهاية الدرويشية من شوارع ملتوية، وصلنا حيث نهاية المنازل، تمتد أرض شاسعة بعدها. وقفنا أمام منزل مسود من الداخل والخارج، المنزل إسمنتي، كل شئ فيه إسمنتي إلا الباب من حديد، رغم كل الإسمنت إلا أنه يدل على طراز البناء الطيني، شعرت أني أمام منزل من طين.

خرج لنا طفل نظر لنا دون أن يقول كلمة منتظرا ما نريده، قال له عظيم:

- أين أبوك؟

دخل الطفل راكضا وخرج رجل عجوز بالكاد يستطيع المشي، رحب بنا وأدخلنا إلى الظلمة، البيت مظلم من الداخل كما من الخارج، هو الرجل الذي سيفتح أبوابا عتيقة من تاريخه وتاريخ الأرض الملونة بهم.

«الدبور يهجم على خلايا النحل ليتعلم معزوفة الرحيق»

هو الطابق الخامس نفسه وهي غرفتنا الكبيرة والشبابيك الكبيرة، كنت أول الواصلين للغرفة، فتحتُ الشباك وملأت إبريق الشاي الكهربائي بالماء منتظراً غليانه.

الشبابيك الكبيرة وهي مفتوحة لا يمكن الهرب من روايتها للعالم الذي تخبئه ولا من المشاهد المفتوحة عليها، إمتداد ثلجي وجبلي حتى تختنق الغرفة بالموظفين ورائحة واقعهم المر.

كان أول الداخلين علاء، فعلاء يحرص على ساعات العمل كثيراً، يحرص على الساعات فقط لأن الراتب ما هو إلا جمع لهذه الساعات وما بعده لا يهم.

الصباحات عدو علاء اللدودة، وجه تحاول الهرب منه إلى أبعد نقطة. ولكني مجبر على تحمله إلى أن تمر الساعات الأولى من الصباح ويعود إلى نفسه ضاحكاً وهازئاً بالحياة، يعود بذاكرته إلى مدينته بغداد وإلى أقاربه في مهران وإلى سجون مرّ بها على الجهتين.

حدثني مرة عن مدينته في مهران، وأخذتني الكتب الممنوعة إلى هذه المنطقة، كنتُ أسمع أغنية لشهرام ناظري وحين سألتُ عنها قالوا لي إنها من ديوان صدر في نسخ محدودة في منطقة «دره شهر» وذهبت لها ووجدتُ النسخة، صدرت عن دار تمّ إغلاقها وانضمّ أعضاؤها إلى حركة مسلحة تسكن الجبال. وجدتُ منطقة علاء كما وصفها فوق الجبل، لكن من رافقني امتنع عن الذهاب معي، قال إن المنطقة خطرة هذه آخر نقطة يمكنني الوصول إليها. ترجلتُ من سيارته وأكملتُ صعودي. صادفني رجل عجوز مع أغنامه فدعاني أن أركب بغلاً لأنّ الطريق طويل. لم أخبر علاء عن رحلتي هذه.

المهم هو ألاّ يتحدث معه أحد قبل وجبة الإفطار التي يفضل الصراع معها، حين أكون صباحا هناك أشعر بأن الأكل له وجود أكبر مما يعني وأنا أراقبه خفية، أشاهد الفم وهو يخلق حاسته بقوة لا تُتوقع، مراقبة علاء صباحا صعبة، فلو فطن

سوف يخلق مشكلة لا تحتمل صباحا، لسان بذيئ وكلمات قاسية لا أعرف من أين يأتي بها وهو يخلقها باللحظة وتكون بمقاس كل شخص توجه له.

بعد أن أنهى علاء معركته مع إفطاره بدأت وفود الموظفون تتوافد، وبدأ العمل.

إلى الآن لم أعرف طبيعة عمل أي منهم، فكل واحد منهم يحمل تخصصا تركه في وطنه ولا يجمعهم إلا شئ واحد وهو المقاومة.

وكلما مرت الأعوام كبر من يقاوم، فبداية الجميع كانت مع شخص ثم اتجهت المقاومة إلى الحزب ومنها تفرعت للدول ثم للعالم، وهناك دائما مؤامرة ومهما حاولت الوصول لهدفهم يدخلوني في غيبيات أكبر مني.

شتتتهم أوطانهم وجمعتهم المقاومة، وأنا مازلت لا أفهم أي شئ يقاوموه.

الغرفة في لحظة تغط في صمت مطبق حين يعمل الجميع ويطوقون رؤوسهم في أوراقهم، كان هناك أزيز مزعج، لا أحد يعلم من أين مصدره، مزعج كإزعاج ضغط الطبشور على

السبورة أو كمرور الحافلات داخل قاعة الأوبرا أو كإلقاء قصيدة يشرح شاعرها معنى كل بيت وهو يستخف بالجمهور.

قالت (القاصة) إنها نحلة.

قال طالبي: إنها ذبابة كبيرة وقد رأيتها.

قال علاء: بنت الكلب الخائنة الفاسقة.

فسكت الجميع وعادوا للإطراق في أوراقهم.

قلت: دبور.

قال علاء: ما شاء الله تكلم، وكيف عرفت أنه دبور يا شاطر العينين؟

شبّ نقاش سريع بين الحضور لم أكن أتوقعه بعد صمتهم المفاجئ، عاد علاء بصوته القوي وقال: قل لنا يا صاحب الدبور أين هو؟

- اسمعه جيدا سوف تكتشف أنه دبور، يتميز صوت الدبور بأنه لا يأتي فقط من صوت أجنحته، فاحتكاكها يشبه احتكاك أجنحة حشرات أخرى طائرة، ولكن ارتطامها بما حولها هو ما يميزه عن بقية الحشرات، ذلك هو تميزه في الاصطدام، لا يخاف مما يصطدم به، يريد إثبات نفسه. يحضر بقوة غازي وستجده خلفك

تماما، خلف المصباح الطويل هذا.

نهض علاء من مكانه رافعا نعله الكبير الذي بإمكانه قتل إنسان به بين أصوات تشير لأماكن أخرى متوقعة، أطفئ الضوء والجميع يراقبه، مدّ يده ليخرج المصباح وإذا بالدبور الأسود يهجم على وجهه فقفز من الكرسي للطاولة مسقطاً المصباح الطويل ونعاله.

جميعنا كنا نتابع هذه القفزة، لم يتوقع أحد ردة فعل بهذا الحجم، أعادت القفزة الصمت للغرفة رغم نظرات الدهشة في الأعين.

لم يعلق أحد واستمر الجميع في متابعة عمله، خرجت من الغرفة متجها إلى الدرج أمام المصعد الكهربائي العتيق، بعد ثواني كان علاء يقف لجانبي.

قال لي:

- هادي هناك موضوع أريد أن أفاتحك به ولا أريد لأي كان أن يعلم به، هذا سري و.... هذا موضوع يكاد يقتلني وهو من جعل مني رجلاً سريع الغضب ولا أتحمل أي كلمة وكُرهت من قبل الجميع، أحدثك لأنك تتفهم، تعال معي للخارج.

وتبعته للخارج.

- دعنا نخرج خارج أسوار العمل أفضل.

تبعته للخارج وأنا أستعيد كل ما قاله أو أشار إليه قد يكون متعلقا بما سوف يبوح به، قبل أيام طلب مني أن أذهب معه ثم نساني. جلسنا في حديقة صغيرة وبدأ الحديث.

- هادي تعرف زهرة بني أسد الله، أنا أحبها وأريد الزواج بها ولكن أبوها وأمها وإخوتها رفضوني، قالوا لي إني عراقي ولا يعرفون كيف سيكون وضعي بعد أعوام؟ وهل سأعود للعراق بعد نهاية كل هذا؟ وما الذي سيحدث لابنتهم وماذا عن أبنائنا؟ كل هذه الأمور لا تهمني أنا أريد زهرة وسوف أتزوجها مهما حدث.

- ولكن علاء، الحق معهم، الناس يخافون على ابنتهم، تعرف، ترك الكثيرون زوجاتهم وهاجروا مخلفين أطفالا، عليك أن تكسب ثقتهم، الحقيقة وضعك صعب جدا وأنت أعلم به.

- سوف أقنعهم، لدي الحل ولكني أريد من يذهب معي وليس هناك من هو أفضل منك وأعرف به.

- أنا؟!!

- نعم أنت، سوف نذهب يوم الجمعة صباحا إلى (ورامين). قبل أيام طلبتُ منك أن تأتي معي، لقد ذهبتُ لوحدي ولكني في حاجة لك الآن.

- وماذا نفعل هناك؟

- سوف تعرف ما أن نصل.

عدنا للعمل ومرّ اليوم وكنت أنتظر أن يشرح لي علاء قبل يوم الجمعة ما سنفعله هناك، بينما علاء يتلافى نظراتي ولا يتطرق للموضوع ولا يقترب منه، في يوم الخميس وحين أراد علاء الذهاب قال لي وهو يمسك مقبض باب الباص وأنا أهم بركوبه:

- غدا صباحا أنتظرك في تجريش الساعة السادسة، لا تنسى الساعة السادسة صباحا.

في السادسة إلا ربع صباحا كنت في ميدان تجريش، تجريش الآن بعكس الساعات النهارية للأيام الأخرى دخل في سباته، كنت أظن أنّ هذا الميدان لا ينام أبدا، هو شبيه بالأسواق القديمة ممعنا في شرقيته و(الإمام زاده) على يمينه يكسوه

بقدم أبعد، كنت أرجع لسوق عبد الحميد، سوقنا حين يخلو من الناس يعود شارعا عاديا، الناس فقط من يثبتون أنه سوق وإذا رحلوا عاد لنفسه كشارع وحيد.

نادى عليّ صوت أخرجني من سوق عبد الحميد وزحمته وضوضائه، علاء جلس في مقدمة السيارة (بيكان) هذه السيارة أسطورية، لازالت تنازع الموت بحركتها الثقيلة، ليس هناك من لا يحمل ذكرى عنها، صاحبت هذه السيارة شعبا عبر أجيال، دخلت السيارة بادرني علاء قائلا:

- سوف نتجه إلى ورامين وأحتاجك يا أخي معي.

صوته خائف وأنا معه الآن وسأكون معه.

قلت له:

- علاء ما الأمر؟

- انظر أنا في ورطة كبيرة وعليّ حلها بأي صورة، سوف نذهب إلى جماعتك قرب الجبال، أنت أعرف بهم وتعرف لغتهم.

- من هم؟

- الغجر.

- وما الذي جعلك تتصور أني أعرفهم وأعرف لغتهم ثم جماعة من.....
- هادي أرجوك.

والتفت ينظر مباشرة في عيني، الرجل لا يرد له طلب، لا يمكن تصور رجل بهذا الحجم لديه عينان تبكيان هكذا.

رغم كل هذا جرحتني كلمته، أشعر بوخزات سكاكين المطبخ في ليالي الشتاء بعد أن تشبعت بتيار الهواء.

- هادي أنا في مشكلة كبيرة أرجوك قدر موقفي ولننهي هذا معا.
- علاء ماذا ننهي، أنا إلى الآن لا أعرف ما الذي تريده مني.
- سوف أشرح لك كل شئ في الطريق.

كرر حكايته وتقدمه لبني أسد الله ورفض عائلتها له وكأني لا أعرف أو أسمع لأول مرة ما دار بينهم، إلى أن قال:

- ولكني عراقي كردي ولدي أصول في هذا البلد، لدي أهل في مهران هادي أرجوك... وأنا على علم بأنك هربتَ من الأهواز لسبب يتعلق بالقتل.

بكاء علاء لم يتناشز مع حجمه الضخم بل هو متناسب مع حجمه. أكاد أصرخ فيه وأترجل من السيارة تاركاً إياه وحيدا في الطريق، ثم تصلني رعشات بكائه الضخم، حتى في أشدّ لحظات انكساره لا يكفّ عن شوي لحم أقرب الناس إليه. حتى زهرة ترجتني في يوم قائلة لا تهتم به هو صاحب قلب أبيض.

طوال الطريق كان السائق صامتا وحين خرجنا من المدينة واقتربنا من الجبال قال:

- الطريق أمامنا طويل، أنا كنتُ شاعراً وأشارك في كبريات المهرجانات، ولكني بعد الحرب اضطررتُ للهروب، وكنتُ مراقبا من الحكومة، لذلك تركتُ الأدب. نحن الأدباء مثل الأطفال، في داخل كل واحد منا طفل. مثلا حين تركب معي امرأة جميلة يئنّ فيّ الطفل، يئنّ ولا يفهم هذا الأنين إلا الشعراء. وحدهم يفهمونه.

مسح علاء دموعه، عدّل جلسته:

- ذكرتني بالطفل الشعري، كل الرجال أطفال. ولكنّ المرأة أو الفتاة لا فرق، حين تتود أكثر من اللازم إلى الأطفال أينما تذهب تصرخ بكل من حولها أنها تحب الأطفال وتموت فيهم، طبعا محركة أصابعها ووسطها

أو في بلدان ثانية شعرها، تحرك صوتها، كل ما يحرك تحركه فقط تريد أن يعرف الجميع أنها تحب الأطفال وتموت فيهم، هذا النوع من النساء يريد العيش لفترة طويلة على أنهن طفلات لا يكبرن في العمر، بينما العمر يقتلع منهن قطعة مع كل حركة. يردن البقاء لفترة طويلة طفلات في الحركة والكلام والأفعال. فقط قل لها كم أنت طفلة، لا عليك سوف تغضب منك وقد تسبك أو تضربك عليك التحمل لأنّ الجملة سوف ترن في أذنينها وعينيها وأنفها، أنا على علم سوف تجدك أينما حللت. تخيل لو صادفت في مكان فتاتين من هذا النوع، في مكان ضيق، فتيات الأطفال، وهناك طفل واحد، سيتخاطفن الطفل، سوف يتحول إلى ميدان تتصارع فوقه فتيات الأطفال، هههههه، تخيل كل واحدة منهما تريد أن تقول إني طفلة بلغة الحرب. الرجال أطفال كذابون أيضا، أقصد الشعراء.

- لقد أوشكنا على الوصول، أنت تعرف....

ما بالهم يتركون الجمل دون إكمالها وكأني أعرف بقيتها..... لكنه تحدث معنا بالعربية وكثر فيها مدّ يشبه الصفير يلحق بآخر الكلمات رغم محاولة السائق إخفاءه.

تفاجئي بالسائق شغلني عن بكاء علاء وحكايته التي لم أعرفها بعد سألته:

- هل أنت عربي؟

- نعم أنا عربي بن عربي من عبادان.

كيف نتأكد من انتماء شخص حين نشك فيه؟ هل تكفي لغته لتنهي انتماءه؟ وما الضرر لو ترك في دوامة هذا الانتماء؟

- أستاذ علاء تعلم أني لن أدخل معكم، سوف أوصلك إلى المكان الذي اتفقنا عليه وسوف أعود في الساعة التي حددتَها.

كلما اقتربت السيارة من الجبال ضاق بنا الطريق انحرفنا إلى طريق ترابي وأرض مفتوحة وامتداد أخضر، توقفت السيارة بنا بعد نصف ساعة سيرا في الطريق الترابي، نزل علاء وكنت خلفه، حمل علاء قنينة ماء كبيرة وسار عازماً على... خطوات محارب، نعم كانت خطوات محارب عازمة على الانتصار، خطوات عسكري جرب الهزيمة ولا يريد العودة لها، ترى كيف تكون تجربة الهزيمة في الجبال؟

يسير وأسير خلفه دون أن نتبادل الحديث، أنفاسنا تتعالى والعشب يحيط بنا وكذلك الرياح الباردة لو كنت في موقف

آخر لجلست في هذه اللحظة على الأرض لدقائق أجول بنظري في قمم تكدست أمامي، مازال الثلج يغطي القمم.

كنت أشعر بأني مراقب رغم صمت المكان وخطوات علاء الواثقة، سرنا لساعات صعودا ونزولا، قنينة الماء في يد علاء أوشكت على الانتهاء ولم أتجرع قطرة واحدة ولا هو التفت إليّ ليحنّ بقطرة، طوال الطريق يقلب صمته وأنا الآن أقلبُّ عطشي.

- هادي علي أن أتبول.

- أطلقها حيث تحب.

توقفت من أجله لكنه لم يقف هل هو يشعر بمن يراقبنا أم أنه على عجلة من أمره؟

كنا نصعد تلاً لكي نقترب من الجبل، بانت أمامنا قطعان أغنام مبعثرة، بحثتُ عن الراعي بينها وبعيدا عنها فلم أجده، علاء يتقدم بخطواته العسكرية المنهكة وقد زادت المسافة بيننا.

- هادي تعال تكلم معهم؟

انفتح أمامنا سهل سيغير كل ما سرناه، حركة فجائية من

الجبل وخيام وزعت، هناك حضائر خرجت منها الأغنام والعنزات، تقدمت لا أعلم ما الذي يقودني، أردت أن أسأل علاء عن أيّ شيء أتكلم معهم ولكني اندفعت وتقدمت إلى الخيام.

رحبت بنا الكلاب بشراسة رهيبة، تحركت تجاهنا بهرولات مدروسة، كانت تظهر من العدم يقودها كلب أسود هزيل، بعكس أنيابه البارزة، هناك من الخلف أيضا ظهرت أخرى، هل سأبدأ الحديث مع هذه الكلاب يا علاء رميتني للكلاب؟

لمحت النساء بين الخيام فتقدمت أكثر، الآن وسط أنياب الكلاب وعواء لا يتزحزح من مكانه. كانت ضخمة وكبيرة، ليست شبيهة بكلاب الساعة الثالثة فجرا. الكلاب التي راقبتها لأعوام من فوق السطح، تأخذ الكلاب مكان عصابات الشباب، يظنون أنهم عصابات، الكلاب أيضا تشكّل مع الساعة الثالثة فجراً عصاباتها الخاصة وتتنقل من شارع إلى شارع وإذا صادفت مجموعة كلاب أخرى تدخل في شجار عنيف ينتهي بهروب المجموعة الخاسرة مع نباح متواصل، نهارا لا تجد ولا كلب أو إشارة على وجودها، لكن الثالثة، الثالثة صباحا تتهافت المجموعات الكلابية على شوارعنا. وكنتُ أعلم من نباحها في أيّ شارع هي وهل تتصادم مع بشر أو مع فصيل منها أو تركض

خلف قطٌ ضيّع طريقه. كانت كلاب الثالثة فجرا نحيفة جدا مقارنة بما وقف أمامي.

تحلقت حولنا النساء والأطفال، من أين خرج كل هؤلاء الأطفال؟ وكيف لم نرهم. ها هي الكلاب تضيق حصارها الدائري حولي وأنا أتقدم نحو قائدها الأسود، شقت السماء صرخة فهمت الكلاب معناها بسرعة، سمعتها بعدة ألحان وبعدة لهجات ولغات، وفرحت بها هذه المرة أكثر، فهي الآن تشق الخوف، يتغير منطوقها ويبقى معناها واضحاً اسكت، اخرس، قف، تأمر الكلاب بالتراجع.

صاحب الصوت رجل كبير في السن، لا يمكن وصفه بالكهل، يرتدي كردية سوداء وقميصاً بنياً ويضع على رأسه كوفية سوداء ووقفته أقوى من صوته.

سرتُ نحوه وأنا أرى الإنكسار في أعين الكلاب إلا الكلب الأسود كان أول العائدين، لم يتح لي النظر في عينيه، سلمتُ على الرجل قبل أن أصل إليه ومددت يدي من مسافة 10 خطوات، حين صافحته تأكدتُ ما ظننته، الرجل أقوى مما يدل عليه مظهره، يد خشنة وصلبة وقوية.

التفتُ للخلف، كان علاء يتقدم ببطئ نحونا، انتظرنا علاء

إلى أن وصل ودخلنا الخيمة بعد أن نزعنا أحذيتنا المغبرة، خاصة حذائي ذو الجلد الأسود بات مكسواً بالتراب الجاف والرطب.

السجاد من صوف الخراف هكذا كانت رائحته والمساند الكبيرة الحمراء، دخل الرجل بحذائه هل أخطأنا حين نزعنا أحذيتنا؟

- قطعنا طريقا طويلا من أجلكم، لصديقي علاء حاجة عندكم.
- أنت عربي؟
- نعم.

هكذا بدأت معه وهكذا أجابني.

ليست المرة الأولى التي أسأل هذا السؤال ولن تكون الأخيرة، تحدث معي بلهجة افتقدتها، كنت أفهم كل ما قاله ولكن كيف أشرحه، هذه لغة تشبه إلى حدّ كبير المقطوعات الموسيقية تفهم ما تريده ولكن يصعب شرحها، تفهم كل حركة صوتية وهي تكبر في ذهنك إلى حد صعوبة جمعها في لغة.

لغة ممزوجة بالهجرة ورائحة الجبل والكائنات البرية، لغة سمعتها أول مرة مقلوبة مظهرة ثيابها الداخلية، أول صدام

لغوي كان شبه عاري ومقلوب رأساً على عقب.

علاء ينظر في وجهي لم يكن ينظر للرجل العجوز وهو يتحدث.

انتظرته إلى أن أنتهى لأذكّره بموضوع علاء الذي مازلت أجهله فبادر الرجل العجوز:

- صديقك جاء عدة مرات هنا، كان يراقبنا من بعيد. يا صديقي كنا نعلم بك تراقبنا.

جملة كان ينتظرها علاء قلبت كل الأمور، تراجعت للخلف وكذلك العجوز ولكنه لم يستطع الهروب من يدي علاء اللتان قبضتا على رجليه، علاء كان يصرخ بكل قوته هازاً الخيمة ومن حولها:

- أرجوك... أرجوك..... سوف أموت دونها.

قال جملته وهو كان يكررها بعدة لغات وإن كانت العربية طاغية.

انتفض الرجل العجوز وتراجع علاء خائفا، قال الرجل العجوز:

- ومن قال لك ذلك، نحن لا نستخدم ما تبحث عنه، عد من حيث أتيت.

مازلت لا أفهم ما الذي فهمه العجوز ولا أنا فاهم ما يريده علاء، بيد أنّ جملة العجوز صارمة لا رجوع فيها وكذلك كانت وقفته.

قلت له:

- أنا عطش.

رغم كرهي لهذه الجملة وتخوفي منها، أنا عطش، أنا جائع، جمل لا أتحمل قولها وأخافها كثيرا، تشعرني أني خارج بشريتي.

عاد العجوز للجلوس وأحضر لنا الماء والشاي في أكواب شفافة صغيرة، مذاق الشاي فيه طعم دخان البلوط ونبتة برية جبلية. تشعر وأنت تحتسيه بكل خلايا هذا السائل الأحمر، ارتشفته بروية وهو ساخن يتلاعب فوقه البخار فكان له مذاق دافئ وحين خفت حرارته دخله مذاق آخر لم أعد أتابع تحول طعمه، إنها مياه الجبال حيث تغور الرياح فيها وتتفتح أجنحة الطيور عليها.

نهض الرجل العجوز وقال:

- تعالا معي.

خرجنا من الخيمة. عاد الأطفال إلى لعبهم في التراب

وهناك من حمل لعبته التي صنعها بنفسه أو تشاركوا في صناعتها أو أمه صنعتها.

النساء.....

أوجه النساء تشع بروقا وتحذيرا وخطرا، مخيف هو هذا الجمال ومستفز.

وقفنا أمام حظيرة وقف بالقرب منها حمار لم يربط بحبل وأمامه برميل بلاستيكي أزرق بقي نصفه ووضع في قعره برسيما، البراميل داخل الحضيرة كانت من حديد بل كل البراميل كانت حديدية.

قال الرجل العجوز الأقوى الآن وهو يسحق الأرض:

- عليكَ أن تقنعه، إذا لم تقتنع لن يتحقق ما جئت من أجله.

قفز علاء على يدّ العجوز وقبلها بعنف. حين سحب العجوز يده سحب جثة علاء الضخمة. كان صراعا بين سكان الجبال.

قال العجوز بعد أن أخرج ورقة وقلما من جيبه:

- اسمك واسم فتاتك؟

- علاء وزهرة.

لم يكتب القلم فقدمتُ له قلمي، لم يأخذه مني ونادى على طفل ليحضر له قلما من خيمته، عاد الطفل مسرعا وسلم الرجل العجوز قلم رصاص صغير.

قال وهو يطوي الورقة:

- سأبذلُ جهدي معه، سأقدمها له إذا التهمها سوف تحصل على ما تريد.

ورمى الورقة وهي مطوية في البرميل الأزرق مضيفا المزيد من البرسيم وقطعة سكر، أكل الحمار بشهية ما رمي في البرميل، وحين سمعنا صوت تكسر قطعة السكر نهق وتوقف عن الأكل، نظرنا في داخل البرميل كانت الورقة المطوية في داخله، قرب الرجل العجوز الورقة من فم الحمار فأخذها ولاكها بين فكيه ثم بصقها سالمة، اقترب منه علاء:

- أرجوك سأفعل كل ما تأمر به، كلها كن طيبا معي، أرجوك.

وكان يقرّب الورقة المطوية من فم الحمار، لقد تمادى علاء مع الحمار والرجل العجوز، أخذها الحمار لكنه بصقها بوجه

علاء، رماها في وجهه مثل عطسة حمارية مفاجئة، تراجع علاء إلى الخلف، انضممت لهم في الترجي لكن الحمار لم يتنازل ولم يأبه بنا.

- ماجا تعالي يا ماجا.

شقت طريقها من بين الخيام رافعة رأسها طاوية الهواء بصدر جبلي، صدرها ثابت بيد أنّ ردفاها هما من يهزان ثوبها الملون الطويل، عيناها زرقاوان تقذف شرراً، وهكذا وصفهما علاء لي بعدئذ، اقتربت منا، حيتنا برأس لم ينحنِ.

أمسكت رأس الحمار رفعته قربت فمها المرجاني من إذن الحمار وتحدثت معه بلغة كنت أرتاح لها، انطلقت منشدا للحمار:

لمَ قلبتِ النار؟

ولماذا ركضتِ بي

وسط خيامكم

ستُحملون على أعناق الكراهية

وستتركينه وحيداً يلوك الهواء

يا آتشية الصوت

خذيه معكِ

لا تتركيه لصوت الريح.

خذيه

لم يعد يفهم صوتي.

ومسحتُ على رقبته.

كنتُ أبكي، والمرأة ذات العينين النارية تبكي معي. حضنتني وأجلستني على الأرض، مسحتْ بثوبها عيني.

هزّ الحمار رأسه، ونهق. نهضتْ المرأة ودست الورقة في فمه، أسنانه تطحن الآن وأنا أرى الورقة تتمزق بين فكيه.

نظرت ماجا للرجل العجوز ومشت عائدة من حيث خرجت.

ثوبها يسير خلفها على الأرض، الشمس فوقها وظلها خلفها، فارعة الطول وجسد ممتلئ بالإختيال ومعرفة سر اللغة، كتلة آتش حقيقية تحرق ما أمامها وما خلفها.

أي حمار لو كان في موقفه لأدى واجبه قبل الإحتراق.

أخرجني الرجل العجوز من صفنتي في النار السائرة وهي تحول كل ما حولها إلى ظلمة....

- عليكما المجئ... ولكن تعالا لنعود إلى الخيمة.

سار علاء بجانب الرجل العجوز، عاد إلى مرحه وهي المرحلة التي تسبق مشاكساته ثم انفجاره.

تركت بجانب الحمار وهو يلوك ما بقي من نثار قطع السكر. أخذتُ أعيد عليه ذكريات أخيه وكيف يسمعني حين رُحّل كل من كان معه، وتُرك وحيدا في أرض قاحلة، حدثته عن الأيام التي كنتُ أخذ معي الماء والطعام له، جالسا بقربه لساعات متأخرة من الليل، أقرأ له الشعر، وفي ليالي أقرأ له الروايات والتاريخ والفلسفة والمنطق وأتناقش معه حول الهوامش، وكيف فتكت به الحمى وقتلته. ينهق حين أصل إلى منحدر شعري، ويهزّ رأسه إذا لم تعجبه الهوامش.

نهضتُ واتجهت إلى الخيمة.

كانا قد جلسا في الخيمة، جلست في الجانب الأيسر فقد احتل علاء مكاني بينما العجوز جلس في صدر الخيمة ومازال الحذاء في رجله.

قال وهو يوجه الحديث لعلاء:

- عليك ختم القرآن عشر مرات، وإذا تمّ زواجك على فاطمة تعال خلفنا قرب الجبال وأحضر صورتك مع زوجتك بثياب العرس.

أخرج علاء رزمة مال ووضعها أمام الرجل العجوز بيد أنّ الرجل العجوز توجه إليّ بالحديث قائلا:

- سأنتظرك، هناك الكثير لأرويه لك، أعرف ما تبحث عنه وأعرف أين هو، اذهبا قبل حلول الليل وخذ مالك معك فنحن لا نأخذه.

نهض علاء قبلي وسلم على الرجل العجوز ثم خرج، كنت مترددا بين الخروج خلف علاء وتركه أو البقاء هذه الليلة بجانب هذا الرجل الذي يعرف ما أبحث عنه، قد أرحل معهم حيث مصدر الآتش.

- تعال هل تريد البقاء عند الناس؟ تعال لنذهب.

استجبت لصوت علاء الراجي أكثر منه آمرا دون أن أقول كلمة ومشيتُ خلفه.

علاء الآن سعيد يكاد يرقص في خطواته، لم تعد الخطوات العسكرية تغريه، كان يغني (مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل واسمعنا دك اكهوه وشمينا ريحة هيل .....)

لم نبتعد بعد عن محيط الخيط، الصوت سوف يصلهم، قلت لأخفف من تمرد صوته ولكي أجاريه في فرحه:

- يمكن أناغي بحزن منغه

ويحن الكطه

كضبه دفو يا نهد

ضحك علاء، ضحكته أعلى من غنائه، كيف أقف أمام هذا الإعصار من الفرح؟

- ها هاهاهه، من أين أتيت بهذا؟ هاهها!!!!!، اذهب واسمع مرة أخرى الأغنية، كضبه دفو يا نهد !!! هها!!!!!، الحمار أثر فيك.

حين عدنا إلى المكان المتفق عليه لم يكن السائق في مكانه، جلس علاء وأشعل سيجارة طلبها مني وجلس يدخن بتلذذ منتصر.

مرت ساعات كان علاء يتحدث فيها لي بل لنفسه أكثر، وكنت أصغي حتى وصلت السيارة، ركبناها، السائق لم يتفوه بكلمة حتى وصلنا ميدان تجريش، من هناك قال لي علاء:

- شكرا هادي عليّ الذهاب لمكان أراك غدا.

تركني وذهب، كانت الحركة في الميدان الآن أقوى من الصباح، الجو مغرٍ في السير وسط الزحمة، رددت ما بدأه علاء وسرت.

«لا تقرب القلم فقد أهلك قومنا، واعرف نفسك من صدور الرجال»

جدي الذي كدت أراه

يأخذون اللغات الأخرى ويشكلون لغتهم الخاصة بهم.

هذا ما عرفته بعد أعوام من لقاءاتي مع العجوز داوود، في نفس البيت المظلم المتقن بشباهته بالطين، في آخر الدرويشية.

كنت أستمع لحواراتهم مع بعضهم، العائلة والأطفال، ضيوفهم، مسافرين من مدن أخرى، وحين أحسوا بالثقة بي كشفوا عن أناس جاؤوا من بلدان أخرى.

منذ الظلمة الأولى ذكرني الرجل العجوز بجدي، جدي الذي لم أره، وصفوه لي كثيرا لكنه كان دائما غائما كما هو غائب الآن.

الداخلون والخارجون كل واحد منهم يتحدث لغة، ولكن الحجم الأكبر منها فارسي وعربي، هناك كلمات تفضح إلى أي مدينة ينتمون، تتربع هذه الكلمات في قائمة كلامهم وتقف سداً فاضحا.

كانت المفردات من شتى الأرجاء تهضم في سبائك راقصة وفرحة ومن داخل حزين حدّ التفجع.

منذ البداية ترددت أصداء التحذيرات منهم وعليهم وفيهم، التحرك إلى جانبهم يجلب الشر السماوي والأرضي ويبيت المقرب منهم منفي في بلاده، أخذتها كلها في حسباني مما ساعدني في اختيار الفترات الزمنية المناسبة للوصول إليهم. حتى عظيم أوصلني لهم وخاف الدخول معي في اليوم الأول والثاني وحتى حين رُحّلوا.

أول التحذيرات أنهم يسرقون الأطفال ولكن كيف يسرق داوود الأطفال وهو يصنع آلات تبكي ليل نهار؟

قلت له بعد أن بتُّ آكل معهم على الأرض:

- من أين جئتم؟

- العالم لنا فأينما سرنا نأخذ ونعطي، هذه هي الحياة علينا تلوين أنفسنا بالآخرين وهم كذلك وإن كانت الألوان تفرض علينا.

وجدتُ الكثير عنهم مع مرور الوقت في الكتب الكريهة والمملة والحاقدة عليهم، مع كل لقاء أتمادى وبحضور من يصله من أهله، الجميع أهله هنا، حتى من وصل من خارجنا.

- لماذا يعتقد الأوروبيون أنكم من مصر؟

- ها....ها ها

ثم قال لي:

- لقد أعجبتنا، إنها تشير إلى مدينة، إلى كل المدن، هذا فحوى قبولنا لها.

كان يقول كلمته بثبات دون أي لف ودوران.

- لماذا لا تصححوها؟

- لا دخل لنا بها، بعد قرون سوف تخلق مفردة من نفس تلك الأرض التي نسبتنا إلى مصر، الأمر أشبه بالموسيقى، فلأريك.....

و أخذ يعزف لي، ثم انحدر دمعه لحنا متناسقا مع أوتار عوده، بعد اكتمال حمرة عينيه توقف ونظر لي وقال:

- هل فهمت الآن ما أعنيه؟

بعدها يعمّ الصمت وأخرج للشوراع، أعود للبحث عنهم بين الأوراق وأحاديث تتبرأ منهم وتعتدي عليهم ولا يمكن الدفاع أبدا.

أعود للعجوز داوود أسأله:

- من أين أنتم؟

- نحن ترحال دائم ولو استقر بنا المقام في مكان سوف نموت. يقولون عنا إننا أُصبنا بلعنة من عهد نوح وابنه، هي لعنة الترحل في الأرض، لكننا نرى لعنة الاستقرار، هي لعنة موسيقية، فما أن نستقر حتى نصاب بها وتتسرب إلى من حولنا. لعنة موسيقية هي لعنة الاستقرار.

- لكنكم هنا في هذه المدينة منذ عشرات الأعوام بل المئات!

- لا دعني أوضح لك.....

عزف على كمانه البني الذي وصفه بأجدادي، حين صحوت من الموسيقى كنت للتو عائد من نقاط قصية، درت في أماكن بعيدة جدا لا أجدها قابلة للوصف.

يفهمني داوود ما يريده بموسيقاه، اعتمد معي الموسقى واعتمد الصمت أمام البقية، مهما جرّح أو زجر أو طرد يصمت ويعود لبيته المظلم يختبأ خلف آلاته الموسيقية خالقا جيلا جديدا منها لطارديه ولاعنيه.

في إحدى الليالي لم أستطع النوم، كانت الساعة الثانية صباحا، خرجت من البيت والجميع نائم، أخذت أمشي، الشوارع خالية وغير مضاءة، ليل حقيقي وهو صيف حقيقي برطوبته التي تخرج العرق من الأظفار، ندمت على الخروج، عدت للبيت وهو مغطى بصمته، الجلوس في ساحة المنزل لن يكون أهون من الشارع، فتحت باب الصالة ،الجميع يغط في نومه.

فتحتُ التلفاز، قنوات إيران الآن نائمة، لجأت إلى قنوات الجوار، أخذت أحرك الزر مثل البرغي في التلفاز الخشبي إلى أن دخلت في مجال قنوات الجوار، العراق، الكويت، السعودية، اليوم مصر أيضا رغم بثها المتقطع، مما يعني أنّ

هناك صيدا وفيرا، توقفت عند موسيقى فيها غرابة وبطيئة أكثر من اللازم، الصوت غير واضح، خرجت لكي أعدل الهوائي، خرجت خمس مرات، أخرج وأعود حتى ثبتته في أجود حالة، عيناه كانتا مرعبتان وموحشتان، جلست أنتظر أن تعاد الموسيقى، دكتور لكتر إسم يعاد ويكرر طوال الفيلم وعيناه لا تكفان في إرعاب من أمامه ومن خلف الشاشة، لا هو يأكل البشر ويتلذذ بلحمهم، انتهى الفيلم ولم أتحرك من مكاني، كنت ملتصقا بالشاشة لكي لا يخرج الصوت إلى مجال نومهم وأوقظهم.

مباشرة بعد نهاية الفيلم اتجهت لداوود، أذان الفجر يرفع وأنا أقترب من الدرويشية، طرقت البيت المظلم، إنه اكتشاف لا يجب تأجيله حتى ظهور النور، فتح لي داوود الباب، النعاس في عينه وقد رفع كميه إلى الأعلى.

- ماذا حدث؟

- هناك أمر هام؟

دخلت، أغلق الباب وتبعني، جلست في الديوانية، زوجته كانت نائمة هناك وبناته الثلاث وابنه الصغير، الجميع نائم تحت هواء المكيف.

قلت له:

- داوود سمعت عزفا، موسيقى مخيفة.
- موسيقى مخيفة.
- نعم مرعبة.
- ليس هناك موسيقى مرعبة كلها إما حزينة أو راقصة.
- لا هي مرعبة وهي مما سمعته عندك.
- صفها لي كيف كانت.
- كانت متقطعة، دن ددددن دنان دن...

كنت أحاول تقليد مقطوعة الفيلم وأنا متأكد أنه سوف يسمعها كما سمعتها لكنه قال:

- حسنا سوف أحضر الآلات لنرى أيها كانت.

- لا ولا واحدة منها سمعت كل ما عندك، لم تكن ولا واحدة كانت مختلفة.
- هل كانت تشبه الناي؟
- لا لا كانت دن دن ددددان مخيفة.

استيقظت زوجته وبناته الثلاث بينما رفع ابنه رأسه وعاد للنوم.

- بماذا كنت تشعر؟

- شعرت بالخوف.
- وماذا أيضا، هل تحدثت معك الموسيقى؟ ماذا قالت لك؟
- قالت، ها كانت تشبه التكسر، تبدأ العزفة وفي النهاية تنكسر، تنكسر فجأة.

نهض من مكانه ودخل لغرفته، كانت الوجوه الناعسة تنظر فيّ، إحدى بناته كانت غاضبة والثانية تهمس في أذن أختها وتبتسم والأم مازالت مرعوبة مما يجري.

عاد داوود يحمل مسجلة وصندوق كاستات، وضعها كلها على الأرض.

- اسمع هل كان هذا الصوت؟
- لا.
- هذه موسيقانا في مصر.

ثم أخرج الكاسيت ووضع واحد آخر رمادي اللون.

- هذا؟
- لا.
- إخوتي في اليونان.

استمر في وضع الكاستات وأنا أسترجع ما سمعته مركزا

على ما يقال لي عبر المسجلة، نهض من مكانه، وجوه بناته الآن تنظر فيّ، تقلبني، تتمعن إحداهما فيّ بذهولي وأنا لا أرد عيني عنهن، أحمل سؤالي، قد يصلهن ويعرفن الجواب.

عاد داوود حاملا كيسا أصفر لامعا، ويمشي حالما أكثر مني مغمضا عينيه.

- ممكن أنك ذهبت بعيدا، قد يكون هذا، اسمع الآن ما تقوله لك. لا نشتاق فقط للموتى نشتاق لكِ أيضا.

ووضع الكاسيت في المسجلة وتعالى صوت الموسيقى.

هي نفسها، كانت الحركة بعيدة عما كنت أسمعه وفيها نايات وأوتار كمان وآلات أخرى لا علم لي بها، هي، إنها هي.

- هي، انتظر لحظة حتى تعود.

كان العزف يصعد ببطئ إلى الأعلى ثم ينزل ثم يصعد، انتظرتها لكي أمسك بها، صعدت كثيرا ثم هبطت فأمسكتها وقلت:

- هي، إنها هي.

ركضت الأم نحو الديوانية ممسكنة بخرقة محترقة وإلى جانبها ابنتها الغاضبة عليّ حين صحت من نومها.

- بيانو، هذه بيانو، هذه معزوفة شايكفس.....

- بيانو، بيانو، شكرا.

وخرجت، الدرويشية الآن مزدحمة والباعة مفترشين برودة الأرض قبل زوال هذه النعمة منهم بعد ساعات، وأنا كنت فرحا بالبيانو، ماذا قال داوود بعد البيانو لا يهم هي بيانو بيانو.

وصلتُ لشارع أربعة عشر كانت هناك الصرخة صباحية، هكذا شاعت بين الجيران، كانت النساء مبدعات في استصراخ الحزن، لهن أصوات أو هي صرخات تشق السماء نصفين بحرتها، صرخات مخصصة لميتهن، حين يسمع خبر الموت يسمع عبر صرخاتهن، تلك الصرخات الرهيبة صرخات استنزاف الدموع، تسمع الصرخة فتركض جهتها ثم،... تسمع ما يليها فتسيطر عليك ترتجف مغها تخيفك، تشعرك أنّ الميت يحضر للمرة الأخيرة، تعرفه عشت معه حتى وإن لم تره، وتبكي هكذا تبكي بكل بساطة، تتعرف على قصته وعمره وطوله ولون بشرته وآخر ما تناول وأين نام، عبر صوت النساء النائحات. ستعرفه مع أصواتهن.

فاتن ها أنا أحمل لكِ شيئا جديدا يختلف عن كل ما حملته لك من كتب وهوامش.

«الفرق بين الآتش والنار، هي أن إحداهما تحرقك والأخرى تترك تنضج»

أنايّ

مات علاء ولكن قبل موته تزوج بزهرة بعد ثلاث أشهر من عودتنا، ذهب علاء إلى الرجل العجوز في جبال ورامين حاملا صورته مع زوجته، أخذ نفس السائق، وكان السائق خائفا من العودة إلى ذلك المكان، هكذا قال علاء وأكمل:

- استمر بحثي عنهم شهرا، أذهب كل يوم مع هذا السائق اللعين ابن مدينتك، وفي كل مرة نذهب لهناك يزيد خوفه وأزيد له المال، كنت خائفا على زواجنا، وجدتهم بعد شهر من البحث، كانوا في أعلى الجبل، هذه المرة لم تهجم علي الكلاب، لقد عرفتني، ولم أنزع حذائي، دخلت به إلى الخيمة وشربت لبنهم ورأيت نساءهم، كم هن

جميلات، وسلمت على الحمار الذي بدوره يسلم عليك، طبعا كل جماعتك يسلمون عليك.

الجملة الأخيرة وجهها لي وهو ينظر في عيني مباشرة، كان يتحدث أمام ثلاث أشخاص، نصيف التركي، وغائب الكردي، وعلي الشوشتري، حين دخلت كان وصل إلى هنا بحديثه، أصرّ علي لكي لا أروي حكايته لأحد، أخذ أغلظ الأقسام لكي لا أبوح به، وطوال شهر كنت أسأله عن العودة لهم ويقول أنا الآن مشغول.

ياه أيها الصديق الوفي الذي لم يدعني ولو مرة واحدة لبيته.....

تذكرتكَ الآن مهزوما ومكسورا ومعربدا.

كنت أستمع له وهو يتلذذ بقصة ذهابه لوحده، أزاحني كليا حتى من الرحلة الأولى، كان بطلا لا يعرف السير مع أحد آخر غير ظله، ما أنا إلا تحية من لائك السكر وجماعتي.

لم أعد أتحمل علاء ولا التواجد بجانبه، طلبتُ تغيير مكاني لغرفة أخرى، حتى هذا لا يفيد، غيرت عملي، غيرت المدينة، غيرت جلدي.. لكن النار لا تهفو، موت علاء أعاد لي علاء

المكسور والمبعد والمظلوم.

تموت لتترك هزيمتك أحملها، كيف نسيتني وعدت حيث وعدت بما أبحث عنه، لا خلفتَ الهزيمة لزوجتك تحملها وابنك، لن يعلم من كنت وكيف جئت؟ ولن يكتشف طعم الكباب صباحا والوطن، أيّ واحد هو؟ من يعيش فيه أم ما كنت تحنّ له وكل ذاكرتك منه.

مازلت أبحث في عن فتنة بين الآتش، آتش الشعر والشعر يقذفني إلى نيران النص، بت أميز الشعر من درجة حرارة الكلمات الآتشية فيه، أقلبها فإذا أحرقتني قصيدة أطيل الزمن معها وإذا أنضجتني أترك نفسي للزوال.

وفتنة، هكذا بتُّ أناديها، لم تكن بعيدة، أريد أن أحضر نفسي لها محتميا منها بالشعر، أعرف أني سوف أهزم أمامها فلست أدري أين وصلت بها النار؟

لكني تسلحت وباتت لي آتشة أصد بها.

بعد أن غدر بي علاء وبعد أن هربت منه ومن كل ما يذكرني به عادت الأمكنة تذكرني بنفسها وبالعودة لها.

تمّ كل شئ بسرعة، استنجدت بصديق لكي أذهب إلى

ورامين، قدم لي المفاتيح ولم يسألني عن وجهتي، ساهر صديق قديم ولا أراه إلا كل أعوام. صامت وما أن تطلبه يسارع بتقديم أعز ما لديه.

اتجهت مساءً إلى ورامين، الطريق مساءٌ أصعب بكثير مما هو عليه في النهار، كل شئ يتحدى فيك البقاء، الصحراء الجريئة باتت الآن وحشا كاسرا يريد نهش عجلات السيارة والحصى الملساء تأزّ كالرصاص والتلال إشارات تحذير.

تقدمت إلى أن شعرت بالسيارة لم تعد تستطيع التقدم أكثر، ترجلت وأحكمت قفل المقود والأبواب ونزعت أسلاك تشغيل السيارة وسرت في الظلام دون أي ضوء، أتقدم مسترشدا بال..... لم يكن هناك ما يرشدني كنت أتقدم فقط دون هوادة، الحصى كانت الطريق الوحيد للتقدم وكلما خرجت عن صوتها الساخر وشعرت بانسحاق النباتات عدت للحصى، كانت الريح تضرب وجهي وكلما صدني الهواء زدت سرعتي في الصعود، خطوات خفيفة خلفي سريعة ماكرة، كانت تلمس التراب وتتفادى دخول مجال الحصى، هناك المزيد منها على جانبي الطريق.

سأخون وطني.

ماذا أفعل هنا؟ ولماذا جئت؟ وما لي أكرر سأخون وطني في الظلام؟

لن أستطيع الركض، هناك لون برتقالي يلوح من بعيد، خففت سرعتي، للتو انزاح الغيم عن القمر، الجو بارد في طهران ولكن في ورامين وقرب الجبال برد لا يوصف، الوحل غطى بنطلوني وجاكتي لم يعد يصد الهواء.

الخطوات على جانبي الطريق دخلت في صوت الوحل، مشهد النهار يحضر بقوة مع حضور ثقل في قدمي وحرقة في حنجرتي.

هو نفسه الكلب الأسود من أنقذني حين سقطت وكان كل ما حولي ينبح، اتخذت الكلاب حاجزا مدافعا في وجه كلاب أخرى، هل كانت كلابا؟!، نهضت والعصافير تتعجل الفجر، كانت خلفي كلبة حليبية اللون التصقت بي، صفاء الفجر قرب الجبال مع ارتجاج بالمكان وخطوات تعلم للتو أين وصلت، كنت أرى الآتش وهو يتكون في الأفق، النار وهي تحرق آخر نجم.

اقتربت من خيمة، إبن الكلب ألم يسمع النباح؟ لمَ لم يخرج؟

ما أن اقتربت من الخيمة خرج شاب وبادرني قائلا:

- لقد تأخرت كثيرا.....
- من أنت؟
- لقد تأخرت، لقد انتظرك ولكنه أُجبر على الرحيل ولن يعود، أوصاني....
- سمعت النباح وعلمت أني هناك ساقط يا ابن.....
- يقول لك...

وقال بلغة عربية مجنونة، راهبة.

- لم تعد النار تجديك، ابحث عن مائك الآن.
- يا ابن الكلب كيف سأعود؟
- سيرافقك.

لم يكن غير الكلب الأسود والحماس في عينيه.

كنت اركض كمن فقد إيمانه حين حشر أو حين حساب أو حين تغادرنا الكثير من أعوام الإيمان.

أتذكر آخر جملة منك يا فتنة، قلتِ: لا أريد منك سوى أن تتعلم. وركضتِ لصاحبك، احتضنتيه، قبلتِه، كان يركض خلفك. سحبت ديوان «إبراهيم في النار» وقدمته له ورقة ورقة، وكان سعيدا بالتهامها.

قد تتفنّن دوائر داخل المشهد الإيراني في تسويقه على أنه الجنّة تجسدت في الأرض. في مقابل تفنّن بعض الدّوائر الخارجية في تصويره جحيما. ويبقى للفنّ الرّوائي منطقه ولغته الخاصّان في مقاربة ملامح وواقع المكان والإنسان.

إننا في «الجزائر تقرأ» سندشّن من خلال هذه الرّواية لهذا القلم سلسلة روايات قادمة من المشهد الإيراني بكلّ وجوهه وجهاته واتجاهاته، لنفتح جسرا بيننا وبين مشهد طالما غذّى الحضارة الانسانية بروائع في شتّى المجالات، بعيدا عن مسطرة السّياسة والايديولوجيا.

الناشر

ISBN 978-9931-00-744-9
9 789931 007449
مكتبة نوميديا